الفصل الأول

الحضارة الكنعانية

كنعان هي منطقة تاريخية سامية اللغة في الشرق الأدنى القديم تشمل اليوم فلسطين ولبنان والأجزاء الغربية من الأردن وسوريا. و كانت المنطقة مهمة سياسياً في العصر البرونزي المتأخر خلال حقبة العمارنة كون المنطقة كانت محل نزاع الإمبراطورية المصرية والآشوريين. ذُكر الكنعانيون كجماعة إثنية كثيراً في الإنجيل العبري. تم استبدال الاسم "كنعان" بـ"سوريا" عقب سيطرة الإمبراطورية الرومانية على المنطقة. من القرن ٧ ق.م إلى القرن ٤ ق.م أسّس الكنعانيون مستعمرات كنعانية جديدة، امتدّت من غرب البحر الأبيض المتوسط إلى حدود السواحل الأطلسيّة.

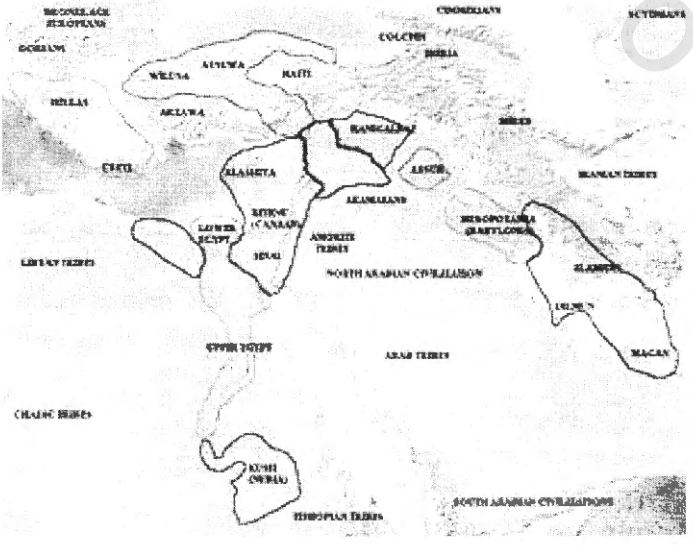

* كنعان :

كنعان باللغة الإنجليزية : Canaan، وبالعبرية : כְּנָעַן، وباليونانية : Χαναάν، وباللاتينية : Canaan، وبالآرامية : ܟܢܥܢ.

تحدث الكنعانيون لغة سامية قريبة من العربية والعبرية، وقد ذُكرت كنعان في الكتاب المقدس على أنها تقع ما بين النهرين وكذلك في النصوص المصرية القديمة. ورغم أن بعض المصادر الحديثة لا تجد أي دليل مادي، فهي ترجح أن الكنعانيين دخلوا الهلال الخصيب من شبه الجزيرة العربية، وهم قوم من العماليق وهناك شعبية لهذه الفرضية أيضاً.

والكنعاني على وجه الإجمال، معتدل القامة، ممتلئ الجسم، عريض الأنف، ضخم الشفتين، بارز الذقن، كثيف الشعر وجلود في الأعمال الشاقة.

◂ التسمية :

لا يعرف على وجه الدقة في تحديد تسمية الكنعانيين بهذا الإسم، ولكن هناك أطروحات تحاول تفسير الاسم، وغالباً فإن التسمية أطلقتها أمم وأقوام أخرى عليهم. وقد اختلف العلماء في تفسير معنى كلمة "كنعان" فبعضهم ذكر أن "كِنَع" أو "خَنَع" كلمة سامية بمعنى على الأرجح "منخفض على الشاطئ" أو "المنطقة المنخفضة" وهو مصطلح قديم لمنطقة الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط في فلسطين ولبنان وسوريا، وقد دُعِيَ الكنعانيون باسمهم هذا لنزولهم الأراضي السهلية واستقرارهم فيها تمييزاً لهم عن غيرهم الذين نزلوا الجبال والمرتفعات. والحقيقة أنهم سكنوا الجبال كما استقروا في السهول. أو أن الكنعانيين دُعوا بهذا الاسم نسبة إلى جدهم الأول "كنعان" كما هي عادة العرب في تسمية قبائلهم،

فيقولون "بنو مخزوم" و"بنو لَخْم" و"بنو تميم" و"بنو هاشم" و"بنو كنعان"... و"بنو كنعان" هؤلاء كانوا يقيمون في بادئ أمرهم في أرضهم السهلية الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي. وقد نسبت إليهم وسميت بـ "أرض كنعان". ولما نزحوا منها ونزلوا الشام حملوا معهم اسمهم واسم بلادهم الذي أعطوه لوطنهم الجديد. وبما أن تاريخهم ليس واضحاً تماماً لذا فقد خضع لعدّة نظريات حول أصل تسمية (كنعان) وهي كالتالي :

١- نظرية الاسم الأكدي :

يرى بعض المؤرخين أن الإسم الأكدي (كناجي أو كناخني Kinakhni) والذي ظهر في رسائل تل العمارنة في مصر هو أصل التسمية، وهو اسم أطلقه البابليون، ويعني اللون الأحمر الأرجواني .

٢- نظرية الاسم المصري :

استعمل المصريون منذ عصر الدولة القديمة كلمة (فنخو) للدلالة على شعب من شعوب الشام، ويرى بعض الدارسين أن اللفظة إستخدمها الإغريق وحورت إلى فويفكس (Phoivikes) للدلالة على فينيقيا وفويفيكن Phoivikn للدلالة على الفينيقيين . .

٣- نظرية الاسم الكنعاني :

وجد نص الملك أدريمي ملك الالاخ (المملكة الكنعانية - الأمورية) إستخدم فيه الكنعانيون أنفسهم هذا الاسم للإشارة لنفسهم .

٤- نظرية الاسم العبري :

وفق التقسيم الإثني للتوراة، فإن الكنعانيين من نسل حام بن نوح، وعادة

اليهود كانت تنسب كل أعدائهم إلى حام. التسمية أتت من السامية القديمة "كنع" بمعنى منخفض وبالتالي فالكنعانيون سكان الأراضي المنخفضة، وذلك بعكس الآراميين الذين تعود تسميتهم إلى الجزر "رم" بمعنى مرتفع .

٥- نظرية الاسم العربي :

تتماشي هذه النظرية لغويا من معاني تلك العبرية، فالكلمات العربية (خنع) و(قنع) و(كنع) تفيد معاني الإنخفاض والهبوط والتواضع .

٦- نظرية الاسم الحوري :

تقترح هذه النظرية أن اسم كنعان مشتق من كلمة كناجي **Kanaggi** وهي تعني بالحورية الصبغة الأرجوانية أو القرمزية؛ والتي اشتهر الكنعانيون بصناعتها، وقد يكون الحواريون أخذو عن الأكديين تلك التسمية أو العكس.

٧- نظريات أخرى :

يرى بعض المؤرخون أن الهكسوس هو الاسم المصري الذي اطلقوه على الكنعانيين عندما حكموا مصر ولذلك يقال حتى الآن بأن مصر هى أرض الكنانة إشارة إلى حكم سلالة النبى إسماعيل عليه السلام -(حديث ابن عباس "نحن معاشر قريش حي من النبط من أهل كوثى")- وكنانة من النبط ولفظ نبط كان وصفاً لخروج الماء من زمزم على يد السيدة هاجر

كنعان في مخطوطات بلاد ما بين النهرين :

بعض كتبة المادة الإبلوية (سنة ٢٣٥٠ ق.م.)، في محفوظات تل مردخ ، يرون في المصادر القديمة الإسم الإثني "غا – نا – نا" كبديل لكلمة كنعان ، والتي تعطي بذلك مصادر تعود للألفية الثالثة قبل الميلاد.

ذكرت كلمة كنعان في مخطوطة تعود للقرن الثامن عشر قبل الميلاد وجدت في آثار ماري (مركز سومري سابق في سوريا يقع في وسط نهر الفرات) . في تلك الحقبة كانت كنعان كتلة سياسية خاصة (من الأرجح تجمع لدويلات). توجد رسالة من ذلك الوقت حيث يشتكى من بعض "اللصوص و الكنعانيين (أو كيناهو)" يسببون المشاكل في قرية راهيسوم .

في ألواح وجدت في مدينة نوزي جنوب شرق كركوك تستعمل كلمة "كيناهنو" (كنعان) كمرادف للصبغة الأرجوانية التي كانت تصنع من صدف المورکس في ساحل البحر الأبيض المتوسط (مادة تصدير هامة بالنسبة للكنعانيين). الصبغة سميت على اسم المكان الذي استخرج منه هذه المادة. وكلمة فينيقيا مرتبطة بالكلمة اليونانية "أرجوان" ولكن لا يوجد تأكيد على ما إذا كانت الكلمة اليونانية تأتي من الإسم أو العكس. اللباس الأرجواني في مدينة صور في لبنان كان يعرف لأهميته ورمزيته الملكية.

* تاريخ الكنعانيين :

وجد علماء الآثار في مختلف المناطق الكنعانية؛ وأبرزها مدينة أوغاريت الكنعانية التي اكتشفت في سوريا في عام ١٩٢٨، الكثير من المعلومات الحديثة عن الكنعانيين خلال التنقيب.

الأصول الكنعانية :

ينتمي الكنعانيون إلى عائلة الشعوب السامية، وقد استقر الكنعانيون في جنوب سوريا وفلسطين وسيطروا عليها سيطرة تامّة، حتى أنها عرفت باسم أرض كنعان أو بلاد كنعان. ويعتبرهم مؤرخو العرب القدامى من العماليق، هم من

الشعوب في مناطق جنوب سوريا وكذلك هناك ساحل في منطقة عُمان جنوب الجزيرة العربية يعرف باسم كنعان.

هناك عدّة نظريات حول أصل موطن الكنعانيين، ومن أشهر النظريات، بعض المؤرخين كـ"خزعل الماجدي" هي أن 'لكنعانيين من أكبر الموجات المهاجرة التي خرجت من شبه الجزيرة العربية، لكن يناقضها اكتشافات أن المدن الكنعانية في فلسطين أقدم من المدن الكنعانية في شبه الجزيرة العربية، وخير دليل مدينة أريحا الكنعانية التي هي أقدم مدينة في التاريخ.

وقد أعطى المؤرخون القدماء عدة فرضيات لأصلهم فرأى "سترابو" أن أصل الكنعانين هي سواحل الخليج العربي، وذلك لتشابه أسماء مدن تلك المناطق القديمة مع أسماء المدن الكنعانية في الشام، ويرجح أصحاب هذه النظرية أن تكون تلك الخليجية هي الأقدم وهاجروا إلى منطقة بلاد الشام في العصور القديمة. ويرى ابن تيمية أنهم سكان حران وأن ملوكهم هم النماردة (جمع نمرود).

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن الكنعانيين من أولى الشعوب السامية التي قطنت الشرق الأوسط بعد وصولها من أفريقيا عبر مصر بعد انهيار الحضارة الغسولينية في فلسطين حوالي ٣٣٠٠ ق.م.

وفقاً للتقديرات الموثقة فإن الهجرة (الآمورية – الكنعانية) الشهيرة من الجزيرة العربية قد حدثت في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد غير أن بعض الباحثين يستنتجون أن الكنعانيين كانوا منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد مستندين في ذلك إلى أن اللغة الكنعانية قد ثبت انتشارها منذ أول الألف الثاني قبل الميلاد وذلك من خلال مكتشفات الآثار المصرية، ويذهب باحثون آخرون إلى أبعد من ذلك فيقولون بوجود الكنعانيين ما قبل سبعة آلاف سنة، وذلك من

خلال تتبع الآثار في مدنهم القديمة؛ وأقدمها مدينة أريحا الباقية حتى اليوم؛ وهي تعتبر أقدم مدينة في العالم.

وإن تأرجحت تقديرات البداية الزمنية لوجود الكنعانيين؛ فمما لا خلاف فيه إطلاقاً أنهم كانوا أول من سكن المنطقة من الشعوب المعروفة تاريخياً، وأول من بنى على أرض فلسطين حضارة.

وورد في الكتابات العبرية أن الكنعانيين هم سكان البلاد الأصليون، كما ذُكر في التوراة أنهم الشعب الآموري، ووفقاً للتوراة تمتد كنعان من أوغاريت (رأس شمرا) حتى غزة، وقد عثر على قطعة نقود أثرية كتب عليها "اللاذقية في كنعان".

يذكرنا هذا التشابه بتاريخ الكنعانيين الفينيقيين، فالشعبان شعب واحد في الأساس لغةً وديناً وحضارةً، لكنهما كانا قبائل لم تجمعها رابطة سياسية إلاّ في الأوقات العصيبة لدرء الخطر عنها من الشمال والجنوب .

وقد ورد في أماكن أخرى أن الكنعاني مرادف للفينيقي، والفينيقي مرادف للتاجر، وقد كانت أهم المدن الفينيقية كصيدا وصور وأوغاريت تعرف أيضاً بالمدن الكنعانية، فبلاد كنعان إذاً امتدت تاريخياً على طول الشاطئ، وفي الداخل شملت فلسطين كلها وقسماً كبيراً من سوريا.

والكنعانيون شديدو الصلة بالآموريين. فهما فرعان من قبيلة كبرى واحدة تحركت في هجرة واحدة لا في هجرتين مختلفتين. تعد لغة الآموريين والكنعانيين لهجتين من فروع كتلة اللغة السامية (العربي) السورية. فلهجة الكنعانيين شبيهة بلهجة الآموريين لا تختلف عنها أكثر مما تختلف اللهجات الشامية اليوم – من سوريا ولبنانية وفلسطينية – بعضها عن بعض. ويحلل بعضها أن الآموريين هم

الكنعانيون، والكنعانيين هم الآموريون، إنما كانوا يسمون أولاً بالآموريين، ومع الزمن عرفوا باسم الكنعانيين.

ذكر بعض المؤرخين أنه : في حوالي ٢٢٠٠ ق.م. بدأ تسلل قبائل عربية بدوية من شمالي الجزيرة العربية على نطاق واسع. وقد انتشرت هذه القبائل في سهول سوريا الشمالية الشرقية وقد اتجه بعضها غرباً جنوباً إلى شرق الأرض وتلال القدس وجبال لبنان. أما الذين تاخموا البحر؛ فقد عرفوا بالكنعانيين، ومن الكنعانيين كان الفينيقيون. واتجه البعض الآخر شرقاً جنوباً واكتسحوا بابل، ومنهم كانت سلالة حمورابي الآمورية .

وذكر بعض المؤرخين أن الكنعانيين كانوا في بادئ أمرهم يقطنون سواحل الخليج العربي الغربية، قبل نزوحهم إلى سواحل الشام وفلسطين. وأن سفنهم أبحرت في مياهه قبل أن تنزل في البحر الأبيض المتوسط. فكانوا يتاجرون مع الهند وإيران وسواحل الجزيرة العربية الجنوبية بل وافريقية.

ومن الذين قالوا بهجرة الكنعانيين من الخليج العربي"هيرودوتس – Herodotus" (مؤرخ يوناني ٤٨٤ : ٤٢٢ ق.م.) ساح في بلدان الشرق الأدنى. ولما عاد إلى بلاده كتب تاريخ تلك الأقطار نقلاً عن علماء صور الذين ذكروا له ذلك. و" إسترابو "و(إسترابو) الجغرافي الروماني (٦٤ق.م : ١٩م) الذي أشار إلى المقابر الموجودة في جزر البحرين بأنها تشابه مقابر الفنيقيين، وأن سكان هذه الجزر يذكرون أن أسماء جزائرهم ومدنهم هي أسماء فينقية. وقال أيضاً إن فى هذه المدن هياكل تشبه الهياكل الفينيقية الشامية.

وقد عثر رجال شركة الأرامكو في الأحساء على مقابر أخرى تشبه بصورة عامة المقابر التي عثر عليها في البحرين، كما عثر الرحالة "جون فلبي" على مثل

هذه المقابر في (الخَرْج) و (الأفلاج) من أعمال نجد. وعلى رأيه وبما كان الفينيقيون من هاتين المنطقتين، حيث هاجروا بعدئذٍ إلى سواحل الخليج العربي.

وفضلاً عما تقدم فهناك أسماء في شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التي أنشأها الفينيقيون على الساحل الشامي. مثل (صور) على ساحل عُمان، و(جُبَيْل) على ساحل الأحساء و أرواد . **Aradus** وهي الاسم القديم لجزيرة المحرّق

وقد زار "نيركس **Nearchus**" أمير البحر عند الإسكندر المقدوني مدينة الشمس (صيدا) على شاطىء الجزيرة العربية الشرقي. ولم يتمكن أحد بعد من تعيين موقع (صيدا) هذه حتى اليوم .

ويُذكَر أن الفنيقيين انطلقوا من البحرين إلى البصرة سالكين طريق الهلال الخصيب إلى الساحل الشامي حيث بنوا مدنهم وأنشأوا حضارتهم الرفيعة التي نشروها في البحر الأبيض المتوسط.

ويرى "فرنسيس لزمان" مؤلف تاريخ الشرق القديم أنهم سلكوا طريق القوافل من القطيف إلى وادي غطفان وجبل طويق في نجد. ثم مروا بالوشم والقصيم فالحناكية. ومنها ساروا في الطريق التي يسلكها الحجاج في كل سنة، حين عودتهم من المدينة إلى دمشق .

ويتضح من خلال ما أجمع عليه المؤرخون والأثريون أن الفينيقيين مثل العرب ساميون. بل أنهم عرب الأصل. نزحوا من الشواطئ العربية الشرقية على خليج فارس (فارس العربي)، ومن البحرين إلى سواحل البحر المتوسط في قديم الزمان).

ويُستنتج من درس الآثار التي وُجدت في المقبرة القديمة في البحرين أن هجرتهم كانت قبل عهد الشبه، في أواخر العهد الصواني، يوم لم يكن الإنسان يحسن شيئاً من الكتابة. إذ لا كتابة البتة في مقابر البحرين الكنعانية.

وقد ذكر المؤرخ العربي "أبو جرير الطبري" المتوفى عام ٣١٠هـ – ٩٢٢م. الكنعانيين في تاريخه أنهم من العرب البائدة، وأنهم يرجعون بأنسابهم إلى العمالقة. وأخذ عنه ابن خلدون وغيره من المؤرخين.

وقال "الطبري" : "عمليق أبو العماليق. كلهم أمم تفرقت في البلاد، وكان أهل المشرق وأهل عُمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم "الكنعانيون"، ومنهم كانت الفراعنة بمصر" .وقال أيضاً : "والعماليق قوم عرب لسانهم الذي جلبوا عليه لسان عربي و إن عمليق أول من تكلم بالعربية. فعاد وثمود والعماليق وأُميم وجاسم وجديس وطسم هم العرب".

وقال "ابن خلدون" عن الكنعانيين : "وأما الكنعانيون الذين ذكر الطبري أنهم من العمالقة، كانوا قد انتشروا ببلاد الشام وملكوها". وقال أيضاً : "أول ملك كان للعرب في الشام فيما علمناه للعمالقة". وقال أيضاً : "وكانت طَسْم والعماليق وأُميم وجاسم يتكلمون بالعربية".

وأما الكنعانيون الذين ذكرهم "سترابون" الجغرافي الروماني (٦٤ ق.م : ١٩م). الذي أشار إلى المقابر الموجودة في جزر البحرين تشابه مقابر الفينيقيين، وأن سكان هذه الجزر يذكرون أن أسماء جزائرهم ومدنهم هي أسماء فينيقية .

إن الرأي السائد بين الذين عنوا بدراسة وفحص هذه المقابر هو أنها مقابر فينيقية، ففي عام ١٨٨٩م جاء "تيودور بنت Theodore Bent" – العالم

الإنجليزي – إلى البحرين وأجرى تنقيباً في مقابرها. وبعث بشيء منها إلى المتحف البريطاني. ولما درستها لجنة المتحف قررت أنها من مقابر الفينيقيين وذلك قبل هجرتهم إلى سواحل الشام وفلسطين وقالت أيضاً إن في هذه المدن هياكل تشبه الهياكل الفينيقية الشامية.

وقد جاء في الجزء الثاني من (لغة العرب): ".. والظاهر أنهم (أي الكنعانيين– الفينيقيين) من أصل عربي فقد نقلت التقاليد القديمة أنهم ظعنوا من الديار المجاورة لخليج فارس إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ".

♦ تعددت آراء المؤرخين حول أصول الفينيقيين نذكر منها :

– أن سكان هذه البلاد الآسيوية (سوريا) ساميون، لا يبعد أن يكونوا من مهاجري صحراء العرب، والمعروف أن مثل هذه الهجرة تكررت في العصور التاريخية. ويقال لهؤلاء القوم الحاليين بالجهات الشمالية "الآراميون" وبالجهات الجنوبية "الكنعانيون."

– أن أصل الفينيقيين (الكنعانيين) من سكان البحرين في الخليج العربي. ظعنوا من هناك إلى ساحل الشام منذ نحو خمسة آلاف سنة. وأنهم عرب بأصولهم وأن هناك مدناً فينيقية أسماؤها أسماء فينيقية مثل صور وجبيل.

وعليه فإن الكنعانيين دخلوا بلادنا وهم متقدمون في المدنية، فأخذوا يتابعون نشاطهم ويمارسون حضارتهم على نطاق أوسع من وطنهم الجديد. ونسبة إلى هؤلاء الكنعانيين دُعيت البلاد بأرض كنعان. فكان أقدم اسم سميت به بلادنا. وقد بقيت لهم السيادة والسلطة في البلاد مدة تنوف عن ألف وخمسمائة سنة.

وذلك من نحو ٢٥٠٠ ق.م إلى نحو ١٠٠٠ق.م. حيث تمكن اليهود من إعلان مملكتهم.

* حدود أرض كنعان :

يطلق اسم "أرض كنعان" على سكان الجبال والسهول ومنطقة بئر السبع الواقعة في جنوبي البلاد، والتي كانت تعرف باسم "النجب Negeb" – بمعنى الأرض الجافة. ويحدد الإنجيل بالعبرية بأن كنعان تمتد إلى لبنان وتحوي جزءاً من مدينة صيدا الساحلية، وتمتد "أرض كنعان" جنوباً إلى غزة عبر "بروك مصر" وشرقاً إلى نهر الأردن. هذه المنطقة الجنوبية احتوت مجموعات لغوية "عرقية" مختلفة. فمخطوطات تل العمارنة التي وجدت في مصر القديمة، ذكرت كنعان فيما يتعلق بغزة وغيرها من المدن الفينيقية على طول الساحل وإلى الجليل. وهناك أيضاً مصادر مصرية عديدة سابقة ذكرت العديد من الحملات التي نظمت في كنعان داخل آسيا.

ويتضح من مراسلات " تل العمارنة " التي ترجع بتاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إن المصريين كانوا يطلقون لفظة " كنعان" على جميع السواحل السورية. و"العهد القديم" الذي هو أهم مصدر لنا في هذا الشأن اختلف في تحديد "أرض كنعان " في مختلف أسفاره فتارة يطلقها على الساحل الشامي إلى حدود مصر، وأحياناً يضيف إلى " كنعان" القسم الجبلي وغور الأردن .

وفقاً للمصادر التاريخية كانت حدودها الأصلية مدخل حماة (بمعنى الطريق إلى حماة) شمالي لبنان إلى الشمال وبادية سوريا والعرب الى الشرق وبادية العرب إلى الجنوب. ولم تمتد إلى ساحل البحر الابيض المتوسط في كل الأماكن إلى الغرب لأن الفلسطينيين ما زالوا إلى أن انقرضوا يقطنون ذلك الساحل بوحدة

مستقلة قوية. ولذلك اشتمل على عدد كبير من المماليك المدينية (الآمورية – الكنعانية) المختلفة. فكانت كل منها تسعى لأن تضم أكبر عدد ممكن من الأراضي والقرى المجاورة لها.

وكان لكل من هذه المدن ملكها وحكومتها ومعبودها وكهنتها. وكان الملك في بعض الأحايين، يجمع في شخصه منصبي الحاكم والكاهن الأكبر. يأتمر الجميع بأوامر الملك الذي كان أحياناً يتقيد بمجلس المدينة العام المؤلف من رجال الدين والقضاء والأغنياء والأشراف. وكثيراً ما كانت المدن الكنعانية بيد ملوك صالحين يقضون بالعدل ويحفظون حقوق الأرامل واليتامى. وكان الأبناء أو الإخوة يخلفون آباءهم أو إخوتهم على العرش على الأغلب. وقد ينتقل الملك إلى أسرة أخرى أو تنتزع الإمارة وتسلب نتيجة ثورة عناصر تصبح لها الغلبة وحسن الضرورة كانت تعقد مؤتمرات من المدن الكبرى للتداول في الشئون العامة المشتركة. ولم تكن المدن والإمارات الكنعانية ميّالة بطبيعتها إلى توحيد كلمتها وتحسين إرادتها، بل كان الشقاق سائداً بينها طمعاً في نهب الأمتعة وضم الأراضي إليها.

قال المؤرخ "جورج رولنسون": "ما تأسس حلف من الولايات الفينيقية كلها مرة واحدة، حتى ولا حلف موقت. وما كان يرد إلى الولاية المهددة أي نجدة من الولايات الأخرى شقيقاتها: الانطواء وتضارب المصالح الخاصة، وضعف الحس القومي، كانت كلها تحول دون توحيد الكلمة والعمل في أيام الخطر والشدة، وكانت كل ولاية تسقط وحدها، فتتبعها الولايات الأخرى واحدة واحدة".

مما سبق يتضح أن الفينيقيين ما كانوا ليدركوا معنى التعاون، ولا مالوا يوماً إلى التضامن العام الذي فيه خير القومية الواحدة والوطن. ولنا أن نقول ما كان هناك وطن واحد، ولا حس قومي واحد، حتى ولا إله واحد يجمع شملهم، ويربطهم

برابطة وطنية واحدة. وما عرف أبناء مدنهم المنحدرون من نسل واحد معنى الإخاء القومي، ولا أدركوا مغزى الحياة الوطنية. وقل فوق ذلك أنهم كانوا متعادين في بعض الأحيان، متخاذلين على الدوام. إلا أن هذه الإمارات كانت ولا شك على جانب عظيم من الحضارة والمدنية في أمور أُخرى مما سنذكره في حينه.

والكنعانيون الذين نزلوا الساحل أمام جبل لبنان عُرفوا بعد القرن الثاني عشر أو الحادي عشر قبل الميلاد بالفينيقيين. فالكنعانيون والفينيقيون شعب واحد، نسباً ولغة وديناً وتمدناً، وقد انقسموا إلى قسمين: سكن القسم الأول فلسطين والثاني الساحل الشامي من مصب نهر العاصي إلى جنوبي الكرمل. ومع أن اسم الفينيقيين أصبح أشهر من اسم كنعان عليهم إلا أنهم ظلوا محافظين على نسبهم الكنعاني. وبقوا يسمون أنفسهم كنعانيين ولا يرضون عنه بديلاً. ونظراً لما بين بيئتي القسمين الجغرافيين من الاختلاف لم يتشابها تماماً في حياتهما. فالساحل السوري صيّر من كنعان أمة اشتهرت بملاحتها وخوضها عُباب البحور. وأما فلسطين فلعدم وجود موانئ صالحة على سواحلها، ولتعرضها للغارات المتعددة من قبل الأمم القديمة، اتجه كنعانيوها إلى الأعمال الزراعية وإلى الجبال والقلاع، وأحاطوا مدنهم بأسوار يلتجئون إليها كلما شعروا بقدوم غازٍ أو فاتح جديد.

وحصل الفينيقيون على أكبر نصيب من العمران عن طريق التجارة، كما أن إخوانهم في الجنوب اهتموا بالتغلب على صعوبات الحاجات العمرانية بترفيه حالتهم الاقتصادية على أساس زراعة راقية غنية جداً، اتخذت مثالاً نقلت عنه الأمم الأخرى.

ومما يجدر ذكره، ونحن بصدد الحديث عن الكنعانيين أن ابن خلدون المؤرخ العربي المغربي الكبير وكثير ممن درس تاريخ المغرب يؤكدون بأن الأمازيغ – (أصل وأقدم سكان ليبيا والمغرب العربي كافة) – هم من الكنعانيين. دعوا بذلك نسبة إلى جدهم "مازيغ بن كنعان"، وارتحلوا من ربوع الشام إلى شمالي إفريقية عن طريق مصر. وقد أطلق اللاتينيون، ومن والاهم، اسم "البربر" على الأمازيغ وما زالوا يعرفون به إلى اليوم. وهذا وأن معظم البربر يعتقدون بأنهم مشارقة الأصل. وكان الكنعانيون المغاربة ينقسمون إلى عشائر متعددة وقبائل صغيرة محلية، وكانت حضارتهم كنعانية ترتكز على الزراعة.

وجاء في معجم البلدان/٣٦٨/١: "وإنما هم (أي البربر) من الجبّارين الذين قاتلهم داود وطالوت، وكانت منازلهم ناحية فلسطين، فلما أُخرِجوا من أرض فلسطين أتوا المغرب فتناسلوا به وأقاموا في جباله". وقال مثل ذلك المؤرخ "المسعودي" المتوفى عام ٣٤٦ هـ. وفي تاريخ أبي الفداء (هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة. توفي سنة ٧٣٢ هـ) أن الكنعانيين بعد تفرقهم سارت طائفة منهم إلى المغرب .

وفي نحو ١٠٠٠ق.م. نزل كنعانيو الشرق (الفينيقيون) سواحل المغرب العربي واستقروا فيه، وأسسوا مع أبناء عمهم الأمازيغ، أسواقاً لتجارتهم أصبحت فيما بعد مدناً قائمة بذاتها، تمتد على سواحل المملكة المغربية الواقعة على المحيط الأطلسي ونتيجة لهذه المستعمرات أو المدن اختلط كنعانيو المشرق مع كنعانيي المغرب اختلاطاً وثيقاً فانتشرت اللغة الكنعانية بين الأمازيغ الذين اعتنقوا عقائد أبناء عمهم الفينيقيين الدينية وتطبعوا ببعض عاداتهم وتعلموا منهم أصول التجارة والصناعة وغيرها.

وقد أطلق اسم كنعان على المنطقة الساحلية التي تقع بين مصب نهر العاصي شمالاً وحدود المملكة المصرية جنوباً قرب العريش وتضم هذه المنطقة فلسطين وما سمي فيها بعد فينيقية وأما الكنعانيون فيختلف العلماء في أصلهم فمنهم من قال أنهم الأقوام الذين تسللوا بين العموريين في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد ويدعوهم "كلود شيفر" و"كاثلين كنيون" حملة الأطواق ومنهم من قال الأقوام العمورية التي استوطنت في الأراضي المنخفضة من فينيقية وفلسطين، ويقوي الأخذ بالرأي الثاني لأن الدلائل التي تشير إلى أن حملة الأطواق كانوا في الغالب أقواماً حورية لا سامية، وأنهم جاءوا من الشمال لا من الشرق أو الجنوب مهبط الأقوام السامية، والكنعانيون كانوا دون أدنى شك من أصل سامي. والمعلوم أن العموريين الذين جاءوا من الصحراء من الصحراء شنوا في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد حملات كثيرة على المدن الفينيقية والفلسطينية التي ازدهرت في الألف الثالث قبل الميلاد وتدعى حضارتها حضارة العصر البرونزي القديم ودمروها شر تدمير وفتكوا بأهلها وأفنوهم عن بكرة أبيهم ونشروا الفوضى والخراب في المنطقة لمدة أربعة قرون. وعندما قامت الأسرة الثانية عشرة في مصر في القرن العشرين قبل الميلاد أُعيد النظام إلى نصابه وتأسست مدن جديدة على أنقاض المدن التي دمرها العموريون.

تدعى هذه المدينة الجديدة حضارة العصر البرونزي المتوسط وقد حلت محل حضارة العصر البرونزي القديم التي دمرها العموريون وتدل أسماء ملوك بعض المدن على أن اللغة كانت لغة أو لهجة عمورية واستوطن بعض العموريين في المنطقة الجبلية وبقوا على اسمهم واستوطن بعضهم الآخر في الأرض المنخفضة في فلسطين وفينيقية وسموا كنعانيين وكلمة كنعان مشتقة من كلمة (كنع) ومعناها

في اللغة الفينيقية أو الكنعانية: (انخفض). ويشمل عهد الكنعانيين العصرين الأثريين البرونزي المتوسط والبرونزي المتأخر.

* الديانة عند الكنعانيين :

تلتقي الديانات القديمة في تصوراتها بما يسمى بـ (مجمّع الآلهة). والكنعانيون مثل غيرهم من الأقوام القديمة المحيطة بهم، كانت لهم تصوراتهم التي أثرت وتأثرت بما حولها من الديانات. وهذا أمر طبيعي، خصوصاً بين أقوام هذه المنطقة، ذلك لأن عوامل الالتقاء بينها أقوى من عوامل التنافر، وتظل هي الأقوى لأسباب جغرافية، وأخرى غيرها عرقية. فالغالبية من هذه الأقوام نزحت من شبه الجزيرة العربية التي ظلت الخزان الذي تخرج منه الهجرات المتعاقبة، وبسبب هذا الالتقاء فإننا نرى التشابه في المفاهيم وإن تباينت الصياغات أحياناً .

قامت الديانة الفينيقية الكنعانية على عبادة قوى الطبيعة كالشمس، القمر، الأرض، السماء، المطر، البرق، الرعد، والعواصف. كسائر الديانات في الشرق القديم. وكان الكنعانيون يقدمون الأضاحي إلى الآلهة، والضحايا البشرية في الأوقات العصبية، وكانت تستبدل بالحيوانات في بعض الأحيان، التي كانت تحرق على المذابح اعتقاداً منهم أن دخانها يشبع الآلهة ويرضيها.

وبخصوص الكنعانيين وآلهتهم، فإن الإله (أيل) يوضع عادة في رأس القائمة، وهو رئيس مجمع الآلهة؛ أي كبيرها. ويوصف عادة بأنه رب السموات والأرض وبقية المخلوقات. كما أنه أيضاً المتعالي، الذي يحتجب فوق كرسيه في السماء السابعة. وقد انتشرت عبادته بين مختلف عشائر الكنعانيين ابتداء من الألف الثالثة قبل الميلاد.

وهناك أيضاً ضمن المجمع الإلهي، الإلهة أشيرة أو شعيرة، وهي الأم الكبرى، وزوجة أيل، وترمز للخصب والعطاء. أيضاً هناك الإلهة عناة، التي هي ابنة أيل، وتلقب بالعذراء تارة، وبالخطّابة – التي تخطب الفتيان والفتيات بعضهم للبعض الآخر– تارة أخرى. وهي إلهة الحب التي يقوم على أكتافها الحفاظ على الأسرة الكنعانية، وهي التي تحافظ على الأخلاق بصورة عامة. وهناك الإله بعل، الذي هو رب المطر والسحاب والصواعق، وهو سيد الزراعة الذي يحارب بضراوة. وإلى جانب هؤلاء هناك آلهة أخرى عديدة. والكنعانيون إجمالاً سبقوا أمم العالم في نشر أرقى ديانات الأمم السامية الوثنية، لذلك كان تأثيرهم الديني لا يقل عن تأثيرهم العلمي والصناعي .

ونظر الكنعانيون إلى خلق الآلهة والبشر سوية واعتبروا أن الآلهة والبشر والكون قد ظهروا من إله واحد هو الإله (يم) المياة الأولى كما في ديانات بلاد ما بين النهرين السومريين، الآشوريين، والبابليين. لم تكن أخلاق الكنعانيين مهيأة للغزو والتقتيل، فقد كانت ديانتهم وملامحهم وآدابهم تدور حول أبوة الواحد (أيل) الذي يوصف غالبا بالخالق الجبار.

وقد ظهر الإله (شمتم) من الإله (يم)، بحيث أن (شم) الإله يتحول إلى (شمايم) وأن (تم) الإله تتحول إلى (أديم) أدمه إلهة الأرض. هذا يعني عملية انفصال السماء عن الأرض.

اعتقد الكنعانيون بالتثليث الإلهي (أب وأم وابن)، أشهر آلهتهم كما ذكر سابقاً ايل (الوهيم) رب الأرباب وهو رئيس مجمع الآلهة ، وأنه ايل يملك أربع عيون : عينان إلى الأمام، وعينان إلى الوراء، عينان مفتوحتان وعينان نائمتان، ومعنى هذا أنه كان في مقدور الإله أيل أن ينام متيقظا ومستعد وهو نائم. وزوجته

الأساسية هي عشيرة وتلقب بالعذراء وهي الإلهة الكنعانية الأم وريثة أمها إلهة الأرض (ادمه)، ومن عشيرة ينجب الإله ايل سبعين إلهاً وعلى رأسهم بعل الرب وعناة.

وتكمن أهمية الديانة الكنعانية ، في أنها جاءت كأساس للاهوت التوحيدي الذي وصلنا مع الديانات السماوية الثلاث. إن ما يسبغه الكنعانيون من نعوت التعظيم والتفوق لإله واحد فوق الجميع، يدل دلالة واضحة على ميلهم إلى تقبّل عقيدة التوحيد، بل إن التوراة نفسها التي صبّت عليهم اللعنات، تشير إلى وجود قبيلة كنعانية كانت تؤمن بعقيدة التوحيد. وفي اعتقادنا فإن هذا كله، يرتبط بنضوج البنية الذهنية عندهم. إن نضوج البنية الذهنية وكما نرى، ينعكس على البعد العقيدي في حياة أي مجتمع، أو بتعبير آخر، فإن رقي الحالة العقيدية، يتناسب طرديا مع سمو البنية الذهنية وتطورها. فإذا كانت الثانية متطورة، فإن الأولى العقيدية أن تكون كذلك، والعكس صحيح كذلك .

يوصف في التراتيل الشعرية الكنعانية، بأنه هو الذي يبعث المطر، فيجعل الأودية تفيض عسلاً. ولقد تعامل الذهن الكنعاني مع أيل باعتباره فكرة مطلقة لها ارتباط بنواميس الطبيعة، وغير ذلك مما يكشف ابتعاده عن العواطف والأهواء في الوقت الذي يبدو فيه قادراً على فعل كل شيء.

لقد اعتقد الكنعانيون بأن كلا من الآلهة والانسان وكذلك الكون قد خلقت جميعها في الوقت نفسه على يد إله واحد أزلي قديم هو الإله (يم). وأما عملية تشخيص الآلهة على هيئة بشر، وقيامهم بما يقوم به البشر؛ فإنها عملية مجازية، ترتبط بعلاقة الدين الكنعاني بقوى الطبيعة، ولكن دون أن يقود هذا التشخيص إلى ظهور عقائد خرافية أو مبالغات خيالية. ولأنهم على سبيل المثال

يبحثون عن علاقة هذه القوى بالزراعة، فقد عبدوا في بواكير حياتهم الدينية الشمس لارتباطها بالنمو، كما عبدوا الأرض وجعلوها إلهة تتعهد شئون الزراعة والخصب. وعلى الرغم من أن الكنعانيين كما تشير العديد من الآثار، كانوا يقيمون لبعض آلهتهم تماثيل ونقوشاً ورسوماً، أو أنهم كانوا يجسدونها في هيئة الانسان الذي له هيبة إلهية، إلا أنهم كانوا ينفرون من عبادة الأصنام أو التماثيل في أشكالها الظاهرة للعيان، وهي مداخل يتم العبور من خلالها إلى قيم عليا في الحياة .

♦ الجيل الثاني من آلهة الكنعانيين :

تعتمد الزراعة في بلاد الشام (سوريا لبنان شرق الأردن وفلسطين) على الأمطار والندى، وبهذا تختلف عن الزراعة في العراق ومصر، حيث الزراعة هناك تعتمد بالأساس على الري. وكان الكنعانيون أصحاب ديانة معروفة وكبير الآلهة عندهم الآله (بعل)، وهو إله الخصب والإنتاج، وهو يسيطر على الرياح والغيوم والعواصف والأمطار والبروق والرعود. وربما من هنا جاء مصطلح الزراعة البعلية في سوريا. وقد كشفت الآثار في أوغاريت (رأس شمرا) على الساحل السوري عن هيكل لبعل وشكله أقدم نموذج، بني هيكل سليمان فيما بعد على طرازه. وتتحدث الأسطورة الكنعانية عن بناء بيت لبعل. ويستعين بعل بالإلهة عناة أن تتوسط له عند أبيها الإله (أيل) ليبني بعل قصره.

لا تقتصر الديانة الكنعانية على تسميات بعينها كمثل: مجمع الآلهة، إله الأموات، إله الأجداد، إله المطر والسحاب وغيرها من الآلهة، ولا على طقوس بعينها كذلك كمثل: الصلاة، الشكوى والتضرع بصوت مرتفع، التطهر، تقديم القرابين ، وسواها ، وإنما لها نظرتها الخاصة للإله أيل الأعلى المتعالي المحتجب،

وللشعب –(شعب أيل الأبدي) – وللعلاقة بينهما كثنائي يدور حول فكرة : 'مخافة الآلهة هي في نهاية الزهو' .

وإلى ذلك أيضاً فإن الأسطورة (الأوغاريتية – الكنعانية) تتجه لتفسير الطبيعة وموجوداتها بطريقة تروي توق الانسان الكنعاني لرؤية الخصب في كل من الأرض والحيوان والانسان جميعها معاً، ودوام اتصال دورة الطبيعة. وقد صيغت الأسطورة الكنعانية لذلك في قالب حركي، مليء بالفعل، بفضل الذهنية البعيدة كل البعد عن التجريد. لذلك نجد الآلهة التي تمثل تشخيصاً لظواهر الطبيعة، وغيرها مما ترتبط بالواقع الاجتماعي؛ تقوم دوماً بأفعال حركية متعاقبة، دون أن تتوقف وعلى غرار ما نراه في كل من (يم) و(بعل) و(أشيرة) و(عناة)..إلخ.

لقد كانت للديانة الكنعانية سلطتها الكبيرة على الفرد والمجتمع. وهي بسبب هذه السلطة، تركت تأثيراتها حتى على أدق التفاصيل في حياة الكنعانيين، الذين كانوا يذعنون إليها بأريحية بالغة، وبدون أي إحساس بكونها ديانة تمارس العسف معهم. وعلى هذا فإن أثرها لا يتوقف عند الجانب المعنوي الأخلاقي، وإنما امتد ليجد انعكاسه في السلوك، ومن هنا يتم الحديث عن واقعية الديانة الكنعانية، وهي الصفة التي بسببها ابتعدت عن المثالية الخرقاء.

من بين أبرز ما يطالعنا في المشهد الديني لبلاد الشام (سوريا، لبنان، فلسطين) هو آلاف من التماثيل الأنثوية الصغيرة، على هيئة جذع ورأس ونهدين عاريين، وجدت في كل موقع أثري تقريباً، سواء في المعابد والمقامات الدينية، أو في بيوت الناس العاديين. وبالطبع فإنه ليس من المعقول النظر إلى هذه التماثيل بمعزل عن عقيدة الخصب التي سادت آنذاك، وآمن بها الكنعانيون هم الآخرون.

ومهمة الكاتب كعالم آثار هي أن يفهم هذه التماثيل في سياقها الزمني. وبما أننا لا نصنفها في زمرة الدمى العادية، فالاعتقاد المُرجح هو : أنها "تماثيل خصب أنثوية"، وأنها تمثل الإلهة عشيرة التي نعرف عنها الكثير. أما لماذا عشيرة ؟ فذلك لأن الكنعانيين كانوا يعتقدون كما ذكرنا، بأنها أم الآلهة، ومرضعتها جميعها، ولأنهم يرون فيها إلهة للحب، وراعية للأمهات في أيام الحمل والولادة، ولأنها في اعتقادهم ترعى شئون الأسرة.

الفرية الكبيرة التي حاولت الدراسات التوراتية إلصاقها بالديانة الكنعانية، ونقصد اتهامها لها بأنها إحدى عقائد الخصب الهابطة، وهذه التهمة كما يجمع مفكرون كثيرون ممن درسوا الديانة الكنعانية، مجرد أكذوبة، الغاية منها تشويه هذه الديانة لأسباب سياسية، وليس لغيرها من الأسباب التي يمكن أن يقبلها العقل. فالدين عند الكنعانيين يظهر دوماً كمؤسسة اجتماعية أخلاقية، تعنى بوقائع يوميات الانسان، وهو يصون قيمه، ويحمي ضعفه، ودوماً فإنه لم يكن يعني الخرافات والقصص الخيالية بين الآلهة، دون ضابط منطقي أو مبرر فني تشخيصي يميز بين الجوهر والشكل كما لدى الإغريق، بل إن الآلهة عند الكنعانيين لم تكن تخوض الحروب رغبة فيها أو لاستعراض قوتها، وإنما لتحقيق أشياء يسعى الناس لتحقيقها. هذا ما نراه في حروب عناة على وجه التحديد، من أجل إنقاذ مملكة أوغاريت، وما نراه أيضاً في أسباب حروب بعل هو الآخر. كل هذا لأن الفكر الكنعاني ينطلق من الوجود ذاته. وأما ما يبدو لنا من أفكار غيبية، فليست سوى أطر تضم هذا الفكر.

وتبدو لنا أخيراً في هذا الدين، الرغبة في زرع الحب والوئام في نفوس الناس، والعمل على إبعادهم عن الحروب والعدوان، وإذا ما صادف وحدث الخطأ

في حياة إنسان ما، فإن هذا الدين سرعان ما يدفعه للبحث عن أفضل الطرق للتطهر من الآثام، عبر طقوس الديانة بالطبع، كالصلاة والشكوى لـ (أيل) بتقديم القرابين والذبائح وقرع الطبول والإغتسال وسواها الكثير .

وكان الكنعانيون يقدسون الينابيع وبعض الآبار والأشجار وخاصة أشجار الجميز، حيث الينابيع تروي الأرض بالماء فتنمو به المزروعات ويستقي منها الناس، وما زالت هذه العادة شائعة في كثير من أنحاء الوطن العربي، فعبادة الينابيع والأشجار وتقديسها معروفة عند العرب وغيرهم من الأمم القديمة، فقد صور هذا الخصب لهم وجود قوى كامنة في تلك الأرضين كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان، كما اعتقدوا في الأشجار بأنها تزيل عنهم الآلام وتشفي من الأمراض.

ويرجح أن قرية سِفْر – بيت مِرْسِم كانت مركزاً لتعليم ديانة الكنعانيين وقد عرفت هذه المدينة بحب أهلها للعلم وبكثرة من نشأ فيها من الكُتّاب والأدباء وغيرهم، فقد كانت مركزاً عظيماً للثقافة الكنعانية، ومع الأسف أن آثارهم المختلفة ذهبت بها عوادي الزمن.

ويظهر أنه لم يكن للقبائل الكنعانية في أقدم أيامها هياكل ومعابد بل كانوا يختارون الأماكن المرتفعة كالجبال والتلال ذات المناظر الجميلة فيقيمون عليها في الهواء الطلق نُصُباً يسمونه "بيت الإله" فيعبدونه ، وعنهم أخذ اليهود ذلك فأقاموا معابدهم على قمم الجبال.

أقام الكنعانيون معابدهم في مختلف أنحاء بلادهم وكانوا يضعون داخلها تمثال الإله المعبود، وبالقرب منه مكان لتقديم الضحايا التي كانت اما بشرية او حيوانية، وكانت الضحايا البشرية عندهم أعظم الضحايا ويقدمونها على [illegible]

أولادهم أو أحدث مولود لهم زاعمين أن هذه الضحايا تستجلب بركات الآلهة على أصحابها، وقد استبدلت فيما بعد الذبائح البشرية بذبائح من الحيوان، وأول من فعل ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام. وأقدم الهياكل الكنعانية التي عثروا عليها هي التي وُجدت في أريحا ومجدّو وتعود بتاريخها إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، ثم عثروا عليها في جازر وبيسان وتِعِنّك وغيرها ، وعثروا في بقايا بعض المعابد على مغاسل للأقدام وقد وُجدت المغسلة في الغرفة الكبرى من المعبد ولا بد أن العابدين كانوا يستعملونها للغسل قبل العبادة. قال المطران "الدِّبس" : "كانت كهنة بعل وعشتروت عند الفينيقيين (الكنعانيين) في أعيادهم يلبسون ملابس النساء ويخضبون وجوههم بالحمرة ويزججونْ حواجبهم ويكحلون عيونهم ويعرون أيديهم إلى الكتف ويحملون بأيديهم سيوفاً أو يتنكبون حراباً ويتأبطون دفوفاً أو معازف يضربون بها ويرقصون ويضجون ويدورون على عقب واحد ، وينعطفون برأسهم إلى الأرض عند دورانهم فيمرغون شعورهم بالوحول ويعضون أذرعهم ويخدشون أجسامهم بسيوف وحراب". وكان لهؤلاء الكهنة نفوذ في أمور مملكتهم يصغى لهم الحكام ويستشيرونهم ويعملون بمشورتهم.

كانت توابيت الكنعانيين عبارة عن جرار من الفخار يطوى فيها الميت طياً كما يكون الطفل قبل الولادة في بطن أمه، وأما توابيت الملوك فمنها ما هو من الصخر الصلد ومنها ما هو من الخشب المزين بقطع من القيشاني الملون. وقد وجد في الجرار وفي توابيت الملوك الكثير من السكاكين والملاعق والحلي والتعاويذ وغيرها. وهذا يدل على أنهم كانوا يعتقدون أنه من حاجات الرحلة في الظلمات الأبدية. ولكن لم يؤمن الكنعانيون بوجه عام باليوم الآخر وبالحساب والثواب والعقاب، فالموت عندهم كان النهاية الأبدية للحياة. ولم يكن الثواب

والعقاب عندهم أمراً يتعلق بالسلوك الاجتماعي أو التصرف الخلقي بقدر ما كان يتعلق بإقامة الفروض والطقوس الدينية: وكان الثواب والعقاب عندهم غنماً أو غرماً مادياً يناله العابد على هذه الأرض، فكانوا ينظرون إلى الصحة والثروة والفلاح المادي والبنين وما شابهها أنها ثواب على القيام بفروضهم الدينية، لاوإذا حرموا هذه اللذات فإنهم كانوا ينظرون إلى الأمر على أنه عقاب لتركهم فروض دينهم .

وكانت مزاولة السحر والعرافة والتنبؤ بالغيب أشياء مألوفة لدى الكنعانيين وقد عثروا في البلاد على تمائم تعود بتاريخها إلى ما بين عامي (١٦٠٠ : ١٢٠٠) ق.م . فتمائم مجدو كانت مصنوعة من القيشاني وأما تمائم (تل العجول) فبعضها كان على صورة كبش من الفضة والبعض الآخر كان على صورة ضفدع من العقيق الأحمر. ومما هو جدير بالذكر أنه بينما كانت الوثنية سائدة بين الكنعانيين انتشرت ديانة التوحيد بين جماعات منهم على أثر قيام سيدنا إبراهيم عليه السلام بدعوته الإسلامية.

* الطقوس الدينية :

١- الإغتسال والتطهر : كان الإغتسال أو التطهّر يجري بواسطة أربعة أشياء عند الكنعانيين :

أولاً : الماء : وقد كان عليهم وفق العقيدة الإغتسال يومياً، وكان الإغتسال بعد الحرب ضرورياً أيضاً لأنها تعتبر جريمةً يجب إزالة كلّ أثرٍ لها .

ثانياً : الزيت : وقد كان يستخدمه الملوك غالباً وقد كان الدهان الأرجواني يشفي من بعض الأمراض حسب عقيدتهم ، وقد كان على الملك الإغتسال بالزيت قبل تولّي الحكم .

ثالثاً : النار : التي كانت من أعظم وسائل التطهر عندهم، وقد كانت النار تستخدم دائماً لتطهير الذبائح .

رابعاً : الصلاة .

٢- دق الطبول وصهر التماثيل : كان دق الطبول طقساً تطهيرياً الغرض منه إبعاد الأرواح الشريرة (كما يعتقدون)، وقد كان صهر التماثيل تطهيرياً أيضاً وذلك لأنه كان يُتم بالنار .

٣- القرابين : كانت القرابين توضع مع الموتى، وقد عثر على قرابين تمثل حيواناتٍ في بعض بقايا المدن القرطاجية، وهناك إناءٌ خاصٌّ للقرابين به سبعة أوعيةٍ كلٌّ منها على شكل زهرة سوسن.

٤- الألواح الجنائزية : كانت هذه الألواح تثبت بواسطة الطين أمام القبور، وأحيانا تمثل الألواح وجه الميت أو تكون اللوحة زخرفاً مثلثاً.

٥- الأعياد : من الأعياد التي كان يُقيمها الكنعانيون: الأدونيات، عيد الهفريس، أعياد ملكارت، أعياد رشف، أعياد ياشمون.

* الأساطير الكنعانية :

♦ أسطورة بعل :

من يتتبع تماثيل بعل في متحف (دمشق) ومتحف (بيروت) ويتفحص الهيئة التي تجسدت بها هيئة التماثيل، ومن يكن له بعض الثقافة عن آلهة السومريين والأكديين؛ سيقف على حقيقة مفادها؛ أن الاعتقادات القديمة حول تصور الحياة في المنطقة متداخلة وربما انتقلت من خلال بلاد الشام إلى إفريقيا وأوروبا. فمن الأسماء التي أطلقها الكنعانيون على (بعل) – وهي كثيرة – ومنها (هدد) وهو

الطقس عند الكنعانيين في حين الإله (أدد) عند السومريين والأكديين والذي ورد في ملحمة (جلجامش) هو إله الرعد. في نماذج لتماثيل (بعل) في متحفي (دمشق وبيروت) وجدت هيئة بعل في حوالي ١٩٠٠ ق م، يمد اليد اليمنى للأمام واليد اليسرى إلى الأسفل، ويعتمر غطاء للرأس، مع أنف على شكل منقار وجسد نحيل، ويظهر معه ثور أو أسد في بعض النماذج. ولكن في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، تخلى (بعل) عن مساعدة الثور أو الأسد، وبدا بشكل قاسي ويحمل وجه شيطاني ويرفع يده اليمنى للأعلى ويمد اليد اليسرى للأمام وعيون غائرة أو جاحظة وفم مفغور. وهذا النموذج موجود في متحف (حلب) من الحضارة الأوغاريتية. وهذا النموذج يبقى مستمراً لنهاية.

تكثر الأساطير عن صراع (بعل) مع (يم). وأسطورة دعوة (بعل) لـ (عناة) لزيارته للكشف عن سر الطبيعة، وأساطير صراع بعل مع القوى السفلية، وصراعه مع (شليط) و(عتك) و(إيل) و(إشت) والكثير من الأساطير التي تغلغلت في التراث الشعبي في المنطقة، وانتقلت إلى إفريقيا، ولا يتحمل المقام التفصيل الكبير في كل تلك الصراعات وقد بدأنا بأساطير بعل لكثرتها للتأسيس في تكوين صورة عن أساطير أخرى.

♦ أسطورة (أدونيس) :

في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد؛ توارت أساطير (بعل) وقوته في السواحل السورية واللبنانية والفلسطينية المتاخمة أصلاً لحضارتي وادي النيل والعراق. وظهرت أسطورة أدونيس في المدن اللبنانية أولاً، في مدينة (جبيل) وكان اسمها (آدون) ومعناها السيد أو الرب ، وهو اسم مماثل في العراق حيث (أدون) هو إله رافديني يمثله (دموزي) السومري و(تموز) البابلي وهما يمثلان المراعي

والخصاب والجمال، وبقيت العلاقة الثنائية بين (تموز وعشتار) أساساً لأساطير الحب في العالم القديم. وانتقلت عبادة (أدونيس) من شرق المتوسط إلى مصر، حيث كان له معبد في مدينة (فاروس) وهي (الاسكندرية) .

• **ولادة أدونيس** : كانت (مورا) فتاة جميلة جدا تفاخرت ذات يوم مع الإلهة (فينوس) بنعومة شعرها، فحقدت عليها (فينوس) وحكمت عليها بأن تقع في حب آثم مع (أبيها) واستعانت بالملاك (كيوبيد) بأن يرشقها بسهام الحب وهي نائمة، فرشقها فوقعت بحب والدها. وكان الخاطبون يتقاطرون على (مورا) في حين ترفضهم كلهم، وطلبت من مربيتها أن تعينها في وضع خطة لتلتقي مع أبيها وتمارس معه الحب دون أن يعلم. فأخبرت المربية والدها بأن أحد جواريه تريد معاشرته، فاستجاب للطلب فوضعت وشاحاً أو قناعاً على وجه (مورا) وتم لها ذلك. وكررت اللقاء، حتى اكتشفها والدها فأشهر سيفه ليقتلها، فهربت بالليل واختفت، وتضرعت للآلهة بعد أن اقترب موعد ولادتها من الحمل الخاطئ، وطلبت من الآلهة أن تتحول إلى شجرة. فاستجابت الآلهة وتحولت (مورا) إلى شجرة، فتمددت أصابع رجليها لتتحول إلى جذور اخترقت الأرض، وتحولت يديها إلى أغصان وفروع وعظامها إلى خشب، وجلدها إلى لحاء وهكذا تحولت شجرة (المر أو العفص) التي هي (مورا) إلى شجرة مقدسة. ولا يزال الكثير من الناس حتى اليوم يقدسون أو يعتقدون بدور تلك الشجرة أو نماذج منها يختارونها في جبال سوريا ولبنان والأردن، ويربطون بها قطعة من قماش لمن تريد أن تتزوج أو يخطبها أحد الشبان. دنت ساعة الولادة، فانشق اللحاء وخرج الوليد لتلتقطه (الحوريات) ويغسلنه بدموع أمه ووضعه فوق العشب، وكان طفلاً جميلاً جداً يشبه الآلهة .

- **خلاف (فينوس) و (برسفونة) على (أدونيس)** : كانت فينوس تراقب ولادة أدونيس، فتعلق فؤادها بجماله وشغفها حباً، فأوكلت تربيته بعد أن خطفته ووضعته بصندوق وأعطته لأختها (برسفونة) ملكة الجحيم، وعندما كبر وقعت (برسفونة) في حبه فتقاتلت الأختان عليه فاحتكمتا عند كبير الآلهة (جوبيتر) أو (زيوس) فقسم السنة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم من أربعة أشهر، قسم لفينوس وقسم لأختها وقسم يكون أدونيس حراً يقضيه مع أي منهما، فاختار فينوس ليقضي معها ثلثي العام والثلث الآخر مع شقيقتها.
- **تحذير فينوس لأدونيس** : لم تكن فينوس لتترك أدونيس في الأربعة أشهر التي يقضيها مع شقيقته، بل كانت تطوف حوله بعربتها التي تجرها (بجعات مجنحة) لتختلي به، فاختلت به في أحد المعابد، فولد لهما خنزير نتيجة الخطيئة. فلحق الخنزير بأدونيس وعضه بأنيابه في فخذه، فارتمى وأخذ يصرخ ودماءه تسيل على الرمال. وقد كانت فينوس هي من حذرته من خلال سرد قصص لقوة الإثم في ممارسة الجنس بالمعابد .
- **دم أدونيس** : سمعت فينوس أنين أدونيس فهرعت فلما رأت دماءه، شقت ثوبها، ولطمت وجهها، وقررت أن تلون الأزهار البيضاء بحمرة دمه، فظهرت (شقائق النعمان) بلونها الأحمر المعروف .

أساطير كنعانية أخرى :

ما يزال الحديث عن أساطير أخرى كأدونيس، منها ما يتردد بين الناس أو يحتل اسماً لمدينة أو منطقة أو نهر، ومنها ما اندثر وسنحاول رص وتكثيف وإيجاز تلك الأساطير بما يكمل الصورة العامة عن الحضارة الكنعانية :

أولاً: أسطورة إشمون : إشمون هو إله النار وهو إله صيدا. وقد عُبد هذا الإله في بيروت وقرطاج وقبرص وسردينيا وشمال إفريقيا. وكان اسمه في مدينة صور اللبنانية (ياسومون) وهو إله الطب عند أهل صور. وقد أعطي اسمه لزهور (الياسمين) وقيل أن (إشمون) هو (شامون) ويعني الإله الثامن من حيث ترتيبه بين أخوته .

ثانياً: أسطورة شدرافا : وهو إنه الطب الواقي من لسعات الأفاعي والعقارب والحشرات، ولذلك أينما ظهر له تمثال، ظهر مع أفعى، ومنه أخذت إشارة الصيدلة الراهنة. وقد ظهر هذا الإله في القرن الخامس قبل الميلاد، وأقيم له معابد في كل من صور وصيدا وإيليس ومعد وقرطاج .

ثالثاً: أسطورة حرون : كانت كلمة (حر) التي اشتق منها اسم الإله (حرون) تعني الشمس، وكانت العرب تشير إلى كوكب المشتري باسم (حر) وكان الإله المصري (حورس) وهو ابن الإله (رع) هو إله الشمس ويرمز إليه بالصقر. أما الإله الكنعاني (حورون) أو (حوران) فهو مرتبط بنسبه بالإله (شاليم) وكان يعبد في شمال العراق (حران) وجنوب سوريا (حوران) وظل تمثاله أو صورته في مسلة (مؤاب) جنوب الأردن إلى القرن الثاني أو الثالث عشر الميلادي حيث تم سرقته. كما وجد له صورة في (شيحان) في الأردن بنفس الفترة.

رابعاً: أسطورة شبش : لم تحظ الشمس بأهمية دينية أو ميثولوجية عند الكنعانيين، وظلت هامشية، إذ طغى (بعل) و(حورون) اللذان أخذا صفتها على الإله (شبش) الذي يمثلها. وقد اختلفت الديانة الكنعانية عن العراقية والمصرية في تقديم الأخيرتين للشمس على غيرها في الديانة .

خامساً: أسطورة يرح (القمر) : كان للقمر حضوراً – على قلته – أوفر من حضور الشمس، وقد كان يظهر بشكلين أنثوي وذكري، في حين كانت الشمس تظهر بشكل أنثوي، ولا زال هذا التصنيف ماثلاً حتى اليوم. والشكل الأنثوي وارد من الرافدين باسم الآلهة (نيكال) التي تم نزوح عبادتها من (حران) شمال العراق إلى سوريا. أما الشكل الذكري، فكان (يرح) الذي كان يُعبد في اليمن وجزيرة العرب باسم (ورخ) وتقول أساطير الجزيرة أن (يرح) هو ناتج زواج (الإلهة) نيكال مع إله ثمرات الصيف .

سادساً: أسطورة حمون : من أكثر الآلهة غموضاً، ففي حين أنه كان إله (حماة) إلا أنه وجد أنه الإله الوحيد عند البربر في شمال إفريقيا، قبل قدوم الكنعانيين (الفينيقيين) إليها، وكان يسمى (حمون المباخر). أو (سيد المباخر) وقد اقترح العلامة (ستاركي) تفسيراً لذلك، معتمداً على وجود أنصاب كثيرة له في شمال إفريقيا يقدم فيها البخور . وهناك من يعتقد أنه إله مصري هو نفسه (آمون). ويذهب أصحاب هذا الاعتقاد الى أنه وجد في واحة (سيوه) معبداً (لآمون)، وكانت هيئته هيئة كبش يحمل الشمس بين قرنيه، وهو نفس الشكل الذي وجد له في ليبيا وعند البربر .

سابعاً: أسطورة تانيت : إلهة قديمة جُلبت لشمال إفريقيا في الألف الثاني قبل الميلاد، ويُعتقد أنها (عناة) وهي إلهة معروفة بالمشرق والعراق وهي (إناتا). والبربر يقدمون تاء التأنيث على الأسماء فأصبحت (تاناتا) وهي الإلهة التي وجدت على نقوش فخارية في مصر قبل (الفراعنة) ويذهب البعض الى أنها نفسها (أثينا) الإلهة اليونانية. ولكن أصلها (سومري) قديم. وهي إلهة الأمومة والخصوبة عند البربر، وزوجها عند البربر هو الإله (بعل حمون)! وقد ظلت عبادتها قائمة للقرن

الثالث الميلادي، وتأثرت إسبانيا وأوروبا بعبادتها حيث بنا لها القيصر (سبتموس سفيروس) وهو من أصل إفريقي معبداً في روما.

* اللغـة :

رغم تعدد التقديرات للبدايات الزمنية للوجود الكنعاني في فلسطين، فمما لا شك فيه اطلاقاً أنهم كانوا أول من سكن المنطقة من الشعوب المعروفة تاريخياً وأول من بنى على أرض فلسطين حضارة. وكانت لغة الكنعانيين أقرب ما تكون إلى اللغة السامية الأم (الساميين الشماليين الغربيين العموريون) أي اللغة العربية البائدة. وتدل أسماء ملوك بعض المدن على أن اللغة كانت لغة أو لهجة عمورية.

وقد ظلت اللغة الكنعانية هي اللغة السائدة منذ فجر التاريخ المكتوب، أي منذ خمسة آلاف عام، ولم تعرف فلسطين حتى عهد الانتداب البريطاني سنة ١٩٢٠م سوى لغات ثلاث: الكنعانية أولاً، والآرامية ثانياً وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح عليه السلام، والعربية ثالثاً. وكانت لغة الكنعانيين أقرب ما تكون إلى اللغة السامية الأم (أي اللغة العربية البائدة، وذلك وفقاً للعديد من المتضلعين من اللغات السامية)، ثم انفردت بخصائص معينة وأصبحت ضمن مجموعة عرفت بكتلة اللغات السامية الغربية، ومنها: المؤابية والفينيقية والعبرية.

واليوم عندما نقارن اللغة العربية باللغة الكنعانية ،نكتشف كلمات متطابقة لا تحصى ومنها : جبل، لون، أم، أب، أخ، بيت، أرض، قبر، رأس، يد، ثلاث، أربع، ...إلخ وهناك كلمات عديدة متشابهة؛ ومنها : لسن (لسان)، شمش (شمس)، نحس (نحاس)، كتن (كتان)، قرت (قرية) ... إلخ

- تصنف اللغات الكنعانية إلى العديد من اللغات وهي :

- **اللغة الفينيقية** : وقد كانت محكية على لسان الفينقيين في الساحل الغربي من لبنان والذي يشمل صيدا وبيروت وغيرها من المدن الفينيقية، بالإضافة إلى الساحل الغربي الشمالي من فلسطين (عكا) .

- **اللغة البونيقية** : وهي عبارة عن لهجة من اللغة الفينيقية وقد انتشرت في المستطونات الفينيقية في إمبراطورية قرطاج.

- **اللغة المؤابية** : وهي اللغة التي كانت محكية على لسان المؤابيين في مملكة مؤاب.

- **اللغة العمونية** : وهي اللغة التي كانت محكية على لسان العمونيين الذين كانوا يعيشون في المملكة العمونية التي نشأت شرق نهر الأردن (مدينة عمّان حالياً) .

- **اللغة الإدومية** : وقد كانت محكية على لسان الإدوميين في مملكتهم التي نشأت في جنوب فلسطين وجزء منها في الأردن .

- **اللغة العبرية** : وهي اللغات التي كانت محكية على لسان العبرانيين في فلسطين، وقد تأثرت اللغة العبرية التي كانت محكية في مملكة إسرائيل الشمالية باللغة الفينيقية، واللغة العبرية التي كانت محكية في مملكة يهوذا باللغة الآرامية، إلا أن اللغة العبرية التوراتية هي نفسها التي كانت محكية في مملكة يهوذا، وقد انقسمت اللغة العبرية إلى عدة لهجات نتيجة الأوضاع المختلفة التي تعرض لها اليهود، ونتيجة الأوضاع التي مر بها اليهود، انقسمت اللغة العبرية كما يلي:

– لغات عبرية تستعمل بنطاق ضيق .

– لغات عبرية حية ومستعملة بشكل واسع .

وهذه اللغات هي :

- اللغة العبرية التوراتية : وهي لغة العهد القديم . .
- اللغة العبرية السامرية : تستعمل بنطاق ضيق لدى السامريين الذين يعيشون على جبل حولون داخل إسرائيل حالياً، والسامريين الذين يعيشون على جبل جرزيم في مدينة نابلس بالضفة الغربية والتي تسمى بمنطقة (يهوذا والسامرة) .
- اللغة العبرية الطبرية : تستعمل بنطاق ضيق في الطقوس الدينية.
- اللغة العبرية المزراحية : ما زالت مستخدمة لدى بعض اليهود الشرقيين .
- اللغة العبرية اليمنية : ما زالت مستخدمة على لسان يهود اليمن .
- اللغة العبرية السفاردية : تستخدم على لسان يهود السفارديم لكن أصبحت أقل.
- اللغة العبرية الإشكنازية : تستخدم على لسان يهود الإشكناز .
- اللغة العبرية المشناوية : (عبرية المشنة)، تستخدم في قراءة المشناة .
- اللغة العبرية الحديثة : تستخدم حاليا كلغة رسمية في دولة إسرائيل على لسان اليهود ويتحدث بها كذلك أعداد كبيرة من الفلسطينيين

و قد تقلص استعمال جميع اللغات الكنعانية ، باستثناء اللغة العبرية الحديثة.

* السياسة :

لم يكن الحكم على أرض كنعان موحداً فقد كانت تتكون من دويلات تتقاتل فيما بينها، إلا عند مجابهة الخطر الخارجي وخصوصاً من (الحيثيين) أو

(المصريين). لذلك اشتهر الكنعانيون ببناء القلاع والأسوار لحماية أنفسهم. وقد ارهبت قلاع أريحا الجواسيس والعيون الذين أرسلهم موسى لاستكشاف أرض فلسطين 'إن فيها قوماً جبارين'. وقد توصل الكنعانيون إلى بناء الصهاريج فوق السطوح، وحفر الأنفاق الطويلة تحت الأرض لإيصال المياة إلى داخل القلاع. ومن أهم هذه الأنفاق نفق يبوس (القدس). حيث حفر اليبوسيون – وهم فرع من القبائل الكنعانية – نفقاً وجاءوه بالمياة إلى حصن يبوس من نبع جيحون، ولذلك صمدت القلعة ثلاثمائة سنة أمام اليهود . غير أن الملك سيدنا داوود عليه السلام اكتشف المدخل السري من خارج السور، فأدخل رجاله إلى النفق حتى وصلوا إلى منتهاه داخل السور وصعدوا إلى السطح وباغتوا اليبوسيين واحتلوا الحصن والمدينة بلا قتال على الأرجح .

وقد عرف الكنعانيون في حروبهم الحصان والمركبة الحربية وكذلك أسلحة الحديد، كما استعملوا القوس والنشاب والخنجر القصير والسكين المعقوف. وقد برعوا في صناعة الأدوات الحربية وهم أول من أدخل فن التعدين مما ساعدهم في صناعة الأسلحة الفتاكة من البرونز والحديد وحتى الفولاذ .

لكنهم لم يشتهروا بأنهم شعب مقاتل، فقد برهنوا على أنهم شعب مسالم أكثر من كونهم شعباً تحكمه عقلية الحرب، كانوا مدافعين عن أنفسهم ولم يكونوا مهاجمين وهذا ما جعل العديد من الأمم المجاورة تتغلب عليهم من مصر وبابل وبلاد الحيثيين ومقدونيا، وكانوا عادة يفضلون دفع الضرائب والجزية كي يدفعوا عنهم التدخلات الخارجية، وفي عهد الفرعون تحتمس الثالث اضطروا إلى التحالف فيما بينهم ١٤٧٩ ق.م ضد الفرعون المصري في مجدو، وعندما عاد تحتمس الثالث إلى بلاده أخذ معه العربات المطعمة بالذهب، وأسِرَّة من العاج،

وأواني وسيوفاً وتماثيل من الذهب، كما أخذ ٢٠٧ آلاف كيس من الحنطة، وفي كتاباته أسماء ١١٨ مدينة يعتقد أنها المدن التي افتتحها في بلاده كنعان، وقد تحولت الدويلات أو الدول المدينية إلى محميات مصرية بعد ذلك.

* تعرضها لهجمات :

في أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد تعرضت أرض كنعان لهجمات شنتها أقوام جاءت من شمال العراق تدعى الأقوام الحورية (ر. الحوريون) التي غزت أرض كنعان عندما ضعفت السلطة المركزية في مصر بعد زوال الأسرة الثانية عشرة. وقد جمع الحوريون عدداً كبيراً من المرتزقة من كنعان وانقضوا على مصر واحتلوها برمتها لمدة ١٥٠-١٨٠ سنة على وجه التقريب. وكان من بين المرتزقة زمرة من بني إسرائيل. ويسمى المؤرخ مانيتون هذه الأقوام الهكسوس. أي الحكام الأجانب.

♦ الغزو الحيثي :

في خلال الفترة التي تلت ذلك قامت دولة جديدة في المنطقة هي الدولة الحوثية والتي تقاتلت مع مصر في بلاد الشام لمدة من الزمن. وبعد ذلك عقدوا السلم حين تزوج الملك المصري ابنة الملك الحوثي، وبعد ذلك استقرت أمور شمال بلاد الشام للحوثيين بينما بقي جنوبها مع المصريين. لكن خلال هذه الفترة قام الملك الأموري "عبدي عشيرتا" بالإدعاء بالرغبة بتوحيد بلاد الشام، وبدأ يستولي على الإمارات الكنعانية والأمورية، وهكذا استطاع بسط سيطرته ومن بعده ابنه "عزيرو" على كل بلاد الشام.

وقد كان الحيثيون يدعمون عبدي وابنه في توحيد بلاد الشام، وقد انتظروا

حتى توحدت على أيديهم ثم غزوها وضموها إلى أراضيهم. وقد حاولت بعض مدن بلاد الشام المقاومة مثل أوغاريت لكنها فشلت. وقد أحس الفرعون "سيتوس الأول" بخطر الحيثيين ولذلك سار واسترجع بعض المدن الشامية مثل مجدو وحوران وبعض المدن التي تقع اليوم ضمن حدود لبنان. وحينها عقد الملك الحيثي "مورواتالي" معاهدة سلامٍ مع المصريين بحيث يبقى الجزء الشمالي من بلاد الشام في يد الحيثيين والنصف الجنوبي مع المصريين.

◂ الغزاة اللاحقون :

في عام ١١٩٠ ق.م سقطت الدولة الحيثية إثر مهاجمة الإغريق وبعض الشعوب العراقية لها من مختلف الجهات. وخلال ذلك الحين استغل الملك الآشوري "تجلات بلاسر الأول" (١١١٦ – ١٠٩٠) ق.م الفرصة واجتاح جنوب سوريا، وأجبر مدينة جبيل على دفع الجزية واستولى على جزيرة أرواد لمدةٍ من الزمن، ولكن لم تكن فترة حكم الآشوريين طويلة كما أنها اقتصرت على مساحة صغيرة من أراضي الكنعانيين.

◂ الغزو المصري :

لقد كانت بداية الاستعمار الطويل لبلاد الكنعانيين الذي استمر ١٢ قرنا هو غزو المصريين لبلاد الشام في عهد الدولة المصرية الحديثة. وقد حدث الغزو خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد في أيام الأسرة المصرية السادسة عشر، وقد كان قائد المصريين هو الملك المصري "وني"، ويُقال أن تعداد جيشه كان بضعة عشرات من الألوف.

وفي زمن الأسرة الثامنة عشرة طرد المصريون الهكسوس من مصر ولاحقهوهم حتى مدينة شاروجين في جنوب فلسطين. وبعد هذا لا يعثر لهم على أثر اذ اندمجوا بالكنعانيين وضيعوا شخصيتهم. ولم ينسى المصريون ما فعلت بهم أقوام جاءت عن طريق كنعان، وإن لم تكن كنعانية ، فأخذوا يشنون الهجمات على كنعان. وأول من غزا كنعان كان تحتمس الأول. ولكن غزوته كانت غزوة طارئة تلاشت ملامحها بعد أن عاد إلى مصر، ولكنها فتحت أعين الكنعانيين فأخذوا يتحسبون لغزوات تابعة وأقاموا حلفاً بينهم وترصدوا للحملات المصرية في مضيق وادي غارة قرب مجدو.

وعندما اعتلى تحتمس الثالث عرش الفراعنة شن ست عشرة حملة على المدن الكنعانية برمتها ، وحصلت ثورات كثيرة على الحكم المصري بعد هذا ولكن الفرعون أخمدها.

وقد كان السبب الرئيسي لهذا الغزو هو تهديد المصالح التجارية لمصر في بلاد الشام، وقد بدأ هجوم المصريين من خلال معركة مجدو في عام ١٤٦٨ق.م. والتي انتصر فيها الجيش المصري في النهاية . وقد قاد المصريين في هذه المعركة تحتمس الثالث (١٤٩٠ : ١٤٣٦) ق.م وقد كانت أولى حملاته الحربية، أما الجيش الذي قاتل المصريين فقد كان عبارة عن حلف بين ما يقارب الـ ٣٥٠ دويلة كنعانية، لكن أمير الحلف والذي سعى لجمعه هو أمير قادش "علي العاصي". وقد اضطر الكنعانيون للاستسلام بعد حصار دام سبعة أشهر على مدينة مجدو التي اجتمعوا فيها والتي سميت المعركة باسمها.

كنعان المصرية :

أذعنت أرض كنعان للحكم المصري لأن الاستقرار الذي وافق حكم الفراعنة حسن أحوال الكنعانيين وشجع تجارتهم وصناعتهم لتركوا للمصريين حمايتهم من الغزاة المتربصين بهم في الشرق. ودامت هذه الحال حتى مجئ أمنتحوتب الرابع أو اخناتون الذي لم يكن يكترث بأمور الدولة والحفاظ على الأمن بل صب كل جهده على الاصلاحات الدينية وكان أول من بشر بالتوحيد. واستغل جيران الكنعانيين من حيثيين وعموريين هذا الظرف، وكان ملك الحيثيين "شوبلومليوما" قد فرض "عيد عشرتا" أمير العموريين على الهجوم على المدن الكنعانية مستعينا بالمرتزقة من الالخبيرو ليفصلها عن منطقة نهارين الخصبة في شمال سوريا التي كان يطمع بها. فاستغاث الكنعانيين بالفرعون أمنحوتب الثالث فأغاثهم وصد العموريين. ولكن بعد مماته وإعتلاء ابنه اناتون عرش الفراعنة أعاد العموريون الكرة وهاجموا المدن الكنعانية.

ولم تُجد نفعاً استغاثات ملوكها بالفرعون فاحتلها العموريون الواحدة بعد الأخرى ابتداء من سميرة شمالاً فجبيل فبيروت فصور فأروشليم وهلم جرا. وعاث الخبيرو فساداً في الأرياف الفلسطينية ودمروا قراها، واحتل "شوبلوليوما" ملك الحيثيين مدينة أوغاريت (رأس شمرا حالياً). وقد عثر في تل العمارنة على الرسائل التي تبودلت بين الملوك الكنعانيين والبلاط المصري أثناء هذه الأحداث الرهيبة.

وعند قيام الأسرة التاسعة عشرة في أواخر القرن الرابع عشر والقرن الثالث عشر قبل الميلاد تمكن الفراعنة من طرد العموريين من أرض كنعان وأعادة سيطرتهم عليها، فرحب بهم الكنعانيون أجلّ ترحيب. واضطر المصريون بعد

الحروب التي نشبت بين الحيثيين والفرعون رمسيس الثاني إلى أن يكتفوا بأرض كنعان ويتركوا مناطق سوريا الشمالية والداخلية تحت سلطة الحيثيين.

وفي أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ظهرت في الأفق أقاوم إيجي هاجمت مصر وأرض كنعان والشمال بشكل كماشة. وبالرغم من أن رمسيس الثالث صدهم في معركة بلوزيون (قرب بورسعيد) البحرية فقد اضطر إلى أن يفسح لهم المجال للاستيطان في جنوب فلسطين. وقد دمرت الموجة التي انصبت على أرض كنعان من الشمال رأس شمرا وجزيرة أرواد في طريقها واندمجت بالكنعانيين فنشأت بذلك الأقوام الفنيقية (ر: الفينيقيون). وفي فلسطين: أرض كنعان الجنوبية، تمكن الفلسطيون الذين جاءوا من سواحل البحر الإيجي من إخضاع البلاد وحماية المدن من بني إسرائيل الذين أصبحوا بدورهم تحت سيطرة الفلسطيين حتى جاء سيدنا داود (عليه السلام) .

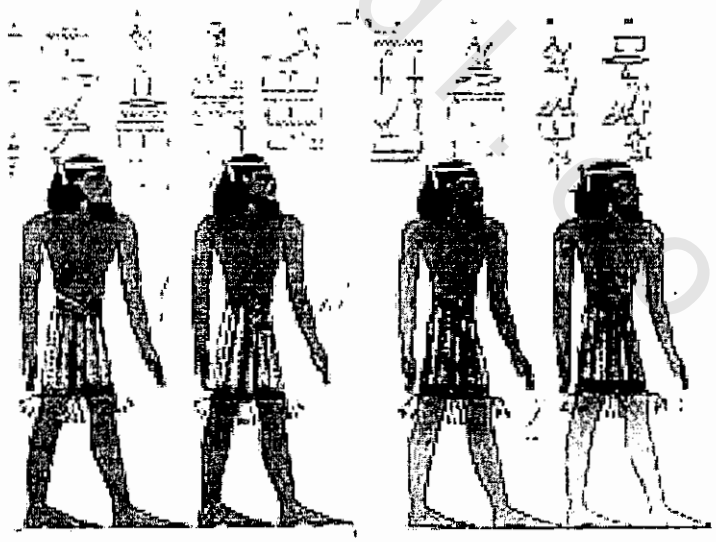

وصف تصويري للكنعانيين (الآسيويين)
ورد في كتاب الأبواب المصري القديم في القرن ١٣ ق.م..

الاسم كنعان يظهر بالهيروغليفية في نصب مرنبتاح من القرن ١٣ ق.م. كالتالي:

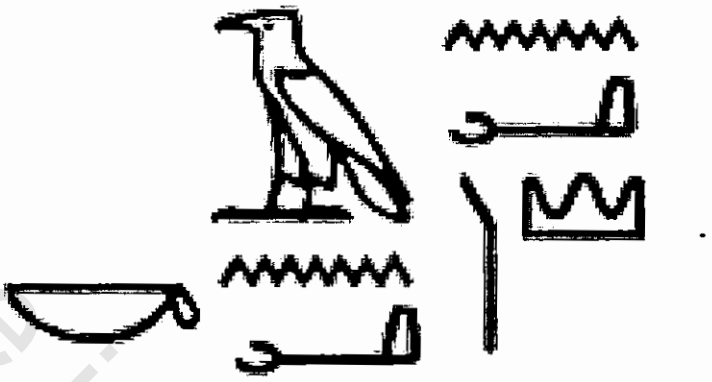

وتعرّض فن كنعان للمزيد من التأثير المصري ،وبين الحلي التي وجدت في قبر"أبي شيمو" و"ابشموابي" جواهر مصنوعة محلياً ولكنها منقولة عن المجوهرات المصرية.

* المدن الكنعانية :

لقد شيدت المدن الكنعانية في فلسطين خلال الألف الثاني قبل الميلاد أي قبل غزو العبرانيين لها، وكانت تعج بمظاهر الحضارة والاستقرار، ومن أقدم المدن الكنعانية الباقية حتى اليوم، أريحا وأشدود (أسدود) وعكو (عكا) وغزة والمجدل ويافي (يافا). ومن المدن التي تغيرت أسماؤها بمرور الزمن : يبوس (القدس) شكيم (نابلس) أشكلون (عسقلان) بيت شان (بيسان) وصدّيم (حطين). وهناك مئات من المدن والقرى منها ما بقي حتى اليوم ومنها ما اندثر وجميعها أسماؤها كنعانية عربية قديمة، سرق اليهود هذه الأسماء الكنعانية العربية وأطلقوها على مستعمراتهم التي أنشأوها على أرض فلسطين مدعين بأنها أسماءٌ عبرية والتاريخ يؤكد أنها كانت موجودة قبل غزوهم لفلسطين .

ومن المدن التي أنشأها العموريون في القرن العشرين والقرن التاسع عشر قبل الميلاد جبيل وصيد وصور وأوغاريت (رأس شمرا) في فينيقيا، ومجدو وتل العجول (غزة القديمة) وبيتين وبيسان وبيت شمش (عين شمس حالياً) وتل الدّوير (لاخيش قديماً) وتل الجزر (جيزر قديماً) وحاصور (تل القاضي حالياً) وأريحا والقدس (يبوس قديماً). وفي زمن الأسرة الثانية عشر كانت أرض كنعان تابعة لمصر بمحض إرادتها لما جنته من الثراء عن طريق التجارة مع وادي النيل.

وأهم مدينتين كنعانيتين هما جبيل في لبنان ومجدو في فلسطين، وترجع أهمية جبيل لكونها مصدّرة الأخشاب من جبل لبنان إلى مصر، وكانت مجدو محصنة بسور ذي بوابة مؤلفة من ثلاثة أبواب الواحد تلو الأخر تحميها أربع غرف للحرس، غرفتان من كل جانب، وكان السور مائلاً من الخارج ومبنياً بحجارة ضخمة، ووجد في داخله معبد وقصر، وكان الكنعانيون في مجدو يدفنون موتاهم في قبور منحوتة في الصخر، وكانت هذه تحتوي عادة على أكثر من مدفن.

* العصـور :

يشمل عهد الكنعانيين العصريين الأثريين:

- البرونزي المتوسط.
- البرونزي المتأخر.

• مزايا العصر البرونزي المتوسط :

• صناعة الخزف :

أهم مزايا هذا العصر صناعة الخزف الذي يعد أجمل ما صنع حتى العصر اليوناني. وكان الكنعانيون يفضلون الشكل الإجاصي. وكانوا أول أمرهم يطلبون

الأواني باللون الأحمر القرمزي ويصقلونها صقلاً لامعاً، ثم أصبحوا يطلونها باللون العاجي ويدهوننها باللونين الأحمر والبني. وتنوعت أشكال الأواني من جرار وأباريق وغطاسات وصبابات وطاسات مجأجأة وسرج وأكواب وهلم جرا. وكانوا يصنعون الأواني من النحاس والفضة والذهب كما ظهر في جبيل. وازدهرت صناعة المعادن فكان الكنعانيون يصنعون الفؤوس والخناجر والرماح. وأما رؤوس النيل فلم تظهر إلا في أواخر عهد الكنعانيين في العصر البرونزي المتأخر. ومن أدوات الزينة الأشكال الحلزونية التي كانت تستعمل لتجعيد الشعر والدبابيس المثقوبة المزودة برأس بشكل بطيخة. وفي مدينة جبيل ترك الكنعانيون عدداً كبيراً من التماثيل للإله رشف، كما أنهم صنعوا تماثيل لجنود يحملون الأسلحة المختلفة.

• **التماثيل :**

كانوا يصنعون من الطين أيضاً تماثيل للآلهة والأشخاص والحيوانات. وكان عصر الكنعانيين غني بالحلي والمجوهرات. فهنالك أقراط وخواتم وأساور من الفضة والذهب. وكانوا يستعملون الخرز بكثرة ويصنعونه من العقيق الأحمر المحزز، ومن الحجر الجيري. وباشروا في أوائل هذا العصر بحفر العاج فأخذا هذا الفن يترعرع حتى بلغ أوجه في القسم الثاني من ذلك العهد. وكانوا يصنعون الخناجر الذهبية للاستعمال في الحفلات، كما كانوا يتحلون بالقلائد المصنوعة من الذهب والمرصعة بالحجارة الكريمة. وفي قبر ابثموابي وحد كنز من المجوهرات المصنوعة من الذهب والفضة والمرصعة بالحجارة الكريمة.

• العصر البرونزي المتأخر :

في العصر البرونزي المتأخر قل عدد المدن المحصنة وصغر بعضها، وتضائل الأثاث الجنائزي كثيراً بالنظر لفقر البلاد بسبب الضرائب الباهضة التي

كانت كنعان تدفعها لمصر. وأصيب الفن كذلك بالاضمحلال والانحطاط. وأما الهندسة فقد أصباها بعض الشلل وابتعدت عن الدقة وإن لم يتغير شكلها.

• صناعة الخزف :

ويظهر هذا الانحطاط جلياً في صناعة الخزف، إذ فقدت الأواني الدقة والعناية المألوفتين في العصر السابق وكاد الصقل يكون معدوماً. وقد حاول الخزافون تغطية هذا الانحطاط بتلوين الآنية ولكن بطريقة بعيدة عن الذوق. وفي أواسط هذا العصر استوردت أواني كثيرة من قبرص ومن ميسين في بلاد اليونان. وحاول الخزافون الكنعانيون تقليد الأواني المستوردة ولكن محاولتهم أخفقت. فالأواني المنقولة عن الأواني المستوردة كانت قبيحة خالية من رونق الخزف القبرصي والميسيني الأصلي.

وفي هذا العصر تلاشت الفؤوس الحربية وحلت محلها فؤوس جديدة غير مزودة بثقوب. وظهرت خناجر جديدة منقولة عن الخناجر الميسينية ذات يد من خشب فوق أساس من البرونز. وظهرت لأول مرة ررؤوس النيل المصنوعة من البرونز ويشبه شكلها ورق الغار بزيادة قطع صغيرة على جوانبها لتساعدها على الرسوخ في الهدف.

• النحت :

قام الكنعانيون في هذا العهد بعدة محاولات في فن النحت نقلاً عن الجيران المصريين من جهة، والبابليين من جهة أخرى. ففي رأس شمرا عثر على نصب من الحجر الكلسي المنحوت بشكل الإله بعل يظهر فيه واقفاً متجهاً نحو

اليمين معتمراً تاجاً بشكل المخروط مزخرفاً بقرنيين وشعره منسدل من تحته بخصلتين، ويلبس ثوباً قصيراً وعلى جنبه خنجر وبيمناه هراوة وبيسراه شعار البرق.

وعثر في عمريت على نصب آخر في أعلاه جناحان مبسوطان تحتهما هلال، ويظهر الإله بعل واقفاً يضع رجلاً على رأس أسد جبل والأخرى على ذنبه، ويعتمر تاجاً مخروطي الشكل له (شرابه) وأمامه رأس الأفعى المعروف بيورياس؛ ويلبس قميصاً مزخرفاً بحزات عمودية وثوباً قصيراً مزخرفاً بحزات مائلة وأفقية وبيمناه شعار البرق وبيسراه حيوان صغير.

واشتهر هذا العصر بحفر العاج حفراً أنيقاً بديعاً. وقد وجدت كمية كبيرة في رأس شمرا ومجدو وكميات صغيرة في أماكن أخرى مثل جبيل وتل الدوير. وكان حفر العاج مألوفا منذ أقدم الأزمنة ولكن بكميات صغيرة. وكثر استعمال العاج المحفور بعد ظهور الكنعانيين في العصر البرونزي المتوسط، وبلغ أوَجه في العصر البرونزي المتأخر. وعثر على رأس شمرة على تخت ملبس بالعاج المحفور على جانبيه وطرفين، كما عثر على غطاء علبة ربما كانت للمجوهرات محفور عليه إله الخصب متزينة بقلادة وشعرها ينسدل بخصل متموجة ومربوطة في مؤخرتها. وهي تلبس ثوباً طويلاً من خصرها إلى أخمص قدميها وصدرها عاري. وظهر عن يمينها ويسارها ثوران يقف كل منهما على قائمتيه الخلفيتين وهو يأكل العشب الذي تمده له. فالنحت دقيق وناعم، وملامح الإلهة منحوتة بدقة واتقان. ويبدو في هذا النحت التأثير الكريتي أو المنيوي لجهة رشاقة الآلهة، والتأثير البابلي لجهة الحيوانات الواقفة على قوائمها الخلفية. وعثر في مجدو على صندوق من العاج جوانبه محفور فيها أسود مجنحة .

ولا يختلف هذا العصر عن العصر السابق إلا بفقر محتويات القبور. وأما في رأس شمرا حيث كان تأثير الميسينين قوياً فقد أقام الكنعانيون قبوراً تشبه القبور الميسينية التي تعود إلى العهد البرونزي المتأخر في ميسين أو في قبرص. وفهذه القبور مبنية تحت الأرض ولها سقف يشبه العقود وأمامها دهليز صغير يؤدي إلى داخل القبر.

ومن أجمل ما عثر عليها في هذا العصر من تحف طبقان مصنوعان من الذهب ومزخرفان بمظاهر حية. فالأول مزخرف بمشهد أسود تهاجم غزلاناً وثيراناً للافتراسها، والثاني بمشهد رجل أو ملك داخل عربة تجرها الخيل وهو يصطاد الغزلان والثيران البرية بقوس، وقد بدا أحد هذه الثيران وهو يهاجم عربة الصياد من الخلف بينما يحاول أحد الكلاب طرده.

• أدوات الزينة :

لا تختلف أدوات الزينة الأخرى عن العصر السابق إلا في هبوط مستوى الصنع. فهنالك مرايا كالعهد السابق ودبابيس ولكن دون رأس كروي، إذ استبدل به رأس حلوزني الشكل. وقل استعمال الحجارة الكريمة بالفايانس. وصنعت من هذه المادة القلائد والخرز والأختام. وتفننوا في صناعة الخرز من هذه المادة فصنعوه بشكل زهرة اللوتس والزنبق والصدف وتماثيل الحيوانات الصغيرة وأعضاء الجنس للرجال والنساء. كما أنهم صنعوا المكاحل من هذه المادة. وكثر استعمال الجعلان المصرية المصنوعة من الستياتيت، ولا سيما تلك المحفورة باسمي تحتمس الثالث ورمسيس الثاني. وكذلك استعملت الأختام الأسطوانية المستوردة من العراق.

وكانت الأصنام الصغيرة تصنع في قوالب من الطين المشوي، وهناك تماثيل لآلهة الخصب وعدد كبير من الحيوانات والطيور، كما أن الكنعانيين صنعوا تماثيل من الزجاج غير الشفاف لآلهة كالإله يس والإله تاورت والإله أوزيرس.

• الكتابة :

أدى ازدهار التجارة في هذا العصر إلى اختراع الكتابة الأبجدية. ففي هذا العصر استعمل في كنعان ما لا يقل عن خمسة أشكال مختلفة للكتابة منها الكتابة الهيروغليفية المقطعية المصرية، والكتابة المسمارية المقطعية الأكدية، والكتابة الأبجدية التي عثر عليها في سرابط الخادم في شبه جزيرة سيناء، والكتابة الجيلية التي ما زالت رموزها مجهولة، وكتابة رأس شمرا المسمارية الأبجدية. ولكتابة 'سرابيط الخادم' أهمية كبرى. فهي تعد الأم التي أنجبت الكتابة الفينيقية الأبجدية كما ظهرت على قبر احيرام في جبيل في مستهل العهد الفينيقي .

* مظاهر الحياة :

اشتهر الكنعانيون بالزراعة وخصوصاً زراعة مختلف أنواع الحبوب والعنب والتين والزيتون والرمان والنخيل والتفاح وكانوا يعرفون معظم الأشجار والفاكهة والأعشاب المعروفة اليوم. كما دجنوا الماشية والطيور، حتى وصفت بلادهم بأنها (تفيض لبناً وعسلاً)، وقد اقتبس العبرانيون هذا الوصف وذكروه في التوراة وكأنه منسب إليهم.

كما مارسوا الصناعة، وصنعوا أسلحتهم من البرونز والحديد، وصنعوا الفخار والخزف والزجاج، وبرعوا في التعدين، كما برعوا في فن العمارة وبنوا المدن والقصور وشيدوا الأسوار واستعملوا الجياد والعربات، وأقاموا المعابد، وكانت

بيوتهم مبنية بشكل جيد وبصورة فريدة في ذلك الزمن البعيد، فقد بُنيت منازل الملوك والأغنياء داخل الأسوار من الحجارة المنحوتة وهي عادة تتكون من باحة في الوسط وحولها الطرق وحتى البيوت العادية فقد كان فيها آبار للمياة وعنابر القمح ونوافذها تطل على الباحة. أما بيوت الفقراء فكانت من اللّبن وكذلك الحجارة غير المنحوتة، وفي الداخل استعملت الأسرة والكراسي وأدوات المطبخ المتنوعة، ونسجوا الصوف ليصنعوا منه ملابسهم، واستعملوا الخشب في الأبنية والأثاث، وكانت مفاتيح بيوتهم ضخمة تصنع من الخشب أو المعدن وفي كثير من قرى فلسطين والشام ومصر ما زالت المفاتيح على هذا الطراز وقد اهتم الكنعانيون بالموسيقى وقد اقتبسوا كثيراً من عناصر موسيقاهم من شعوب مختلفة توطنت الشرق الأدنى القديم، وقد استخدموا الموسيقى والغناء في طقوسهم الدينية، وقد انتشرت موسيقاهم في جميع بقاع المتوسط

إن الأدب والفن هما عنوان الحضارة وقد أبدع فيهما الكنعانيون والمتتبع للكتابات الإسرائيلية التي تحاول جاهدة إيهام العالم بأنهم هم الذين بنو الحضارة العريقة وأنهم أصحاب الأناشيد والتراتيل والغناء. إلا أن كبار المؤرخين الثقات أمثال "برستد" الذي وصف المدن الكنعانية المزهرة يوم دخلها العبرانيون بقوله: "إنها مدن فيها البيوت المترفة، وفيها الصناعة والتجارة والكتابة والمعابد، .وفيها الحضارة التي سرعان ما اقتبسها العبرانيون الرعاة البدائيون، فتركوا خيامهم وقلدوهم في بناء البيوت كما خلعوا الجلود التي ارتدوها في الصحراء وارتدوا الثياب الصوفية الزاهية الألوان، وبعد فترة لم يعد في الإمكان أن يفرق المرء بين الكنعانيين والعبرانيين بالمظهر الخارجي، فقد اقتبسوا الحضارة الكنعانية كما يقتبس المهاجرون الجدد إلى أمريكا في يومنا هذا طرق المعيشة الأمريكية".

العلاقات التجارية مع مصر : وقد استوردت المدن الكنعانية عدداً كبيراً من الأواني المصنوعة من المرمر من مصر.

وكانت سنة الكنعانيين مؤلفة من اثني عشر شهراً قمرياً، ولما كانت السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بنحو ١١ يوماً؛ فكانوا ضبطاً للفصول يضيفون بين حين وآخر شهراً على سنتهم ولعلهم أخذوا ذلك عن السومريين سكانْ العراق في فجر تاريخه. وقد ورثت بعض الأمم الشرقية هذا التقويم القمري وما زالت تستعمله في شئونها الدينية.وقد عرف الكنعانيون (الأسبوع) الذي يعزى اختراعه إلى العراق القديم.

وحوالي ٢٠٠٠ ق.م كان جميع هؤلاء الساميين الغربيين قد بلغوا درجة من المدنية لا يستخف بها معظمها مستمد من مصر وبابل وبعضها وهو القليل مقتبس من بلاد اليونان لأن وطنهم الذي هو الطرف الشرقي من بحر الروم على السكة السلطانية التي بين هذه البلدان فكان لهم اتصال بها غير منقطع .

وكان الختان شائعاً بين الكنعانيين ،كما كان شائعاً عند المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ (أي منذ عام ٤٠٠٠ ق.م) وعند قبائل كثيرة في الجزيرة العربية منذ عصور طويلة، والأدوات المستعملة للختن هي السكاكين الحجرية كالمدية والموس. كما أن انتخاب العريس والعروس كان منوطاً بالأقارب، وكان للكنعانيين أعياد يحتفلون بها، منها بداية حصاد الشعير وآخر عيد ختام حصيد القمح وعيد الكروم وغيرها. وكانوا يحلقون بعض أجزاء رؤوسهم كانوا يدهنون شعورهم بزيت عطر ولا سيما في الأعياد والمواسم، وكانوا يعتبرون حلق الرأس وجزه دلالة على الحزن الشديد والتوبة على الخطيئة. وكانوا يخلعون نعالهم حين دخولهم للمعابد وغيرها دليلاً على الاحترام. وقد كان للأب عند الكنعانيين مقام

رفيع وسلطة قوية وكانوا يعتقدون بتأثير رضاه وغضبه وكان له حق التحكم في أولاده سواء تزوجوا أم لا، وإذا مات رب العائلة تُناط رياستها إلى ابنه الأكبر.

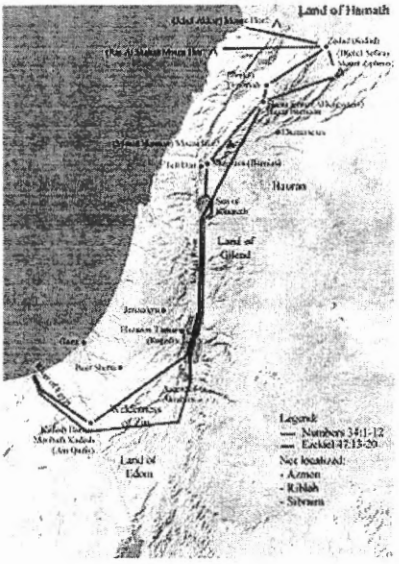

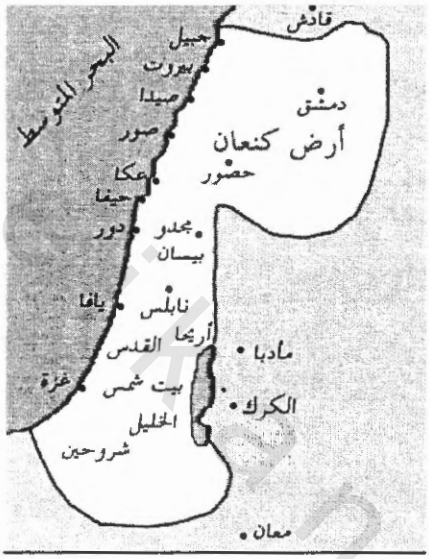

خريطة كنعان، الحدود تظهر بالأحمر.

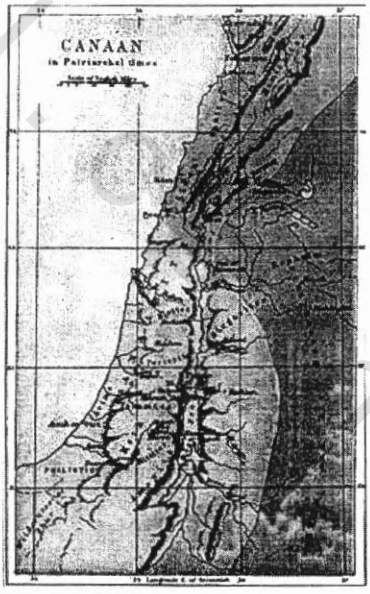

خريطة المنطقة الجنوبية من كنعان

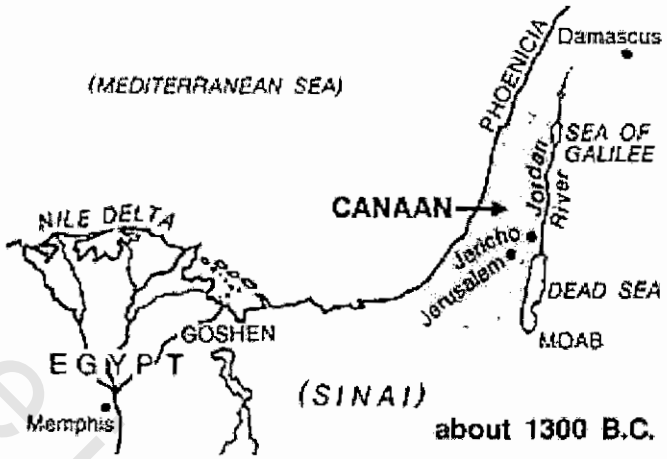

الامتداد التقريبي لما عُرف بإسم بلاد "كنعان/كِناحو" حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م.

* الفن الكنعاني :

نسج الكنعانيون فناً خاصاً بهم، مركباً من عناصر مختلفة، مقتبساً من الحضارات المجاورة، كحضارة بلاد الرافدين وسوريا والعالم الحيثي ومصر واليونان وقبرص؛ وقد تجلت عظمة الفنان الكنعاني في كيفية صهر وصقل هذه المقتبسات بأسلوب وطابع ذاتي خاص، جاعلاً من هذه العناصر المتباينة جداً فناً متميزاً خاصاً يعكس الوجه الحضاري للإنسان الكنعاني.

ويمكن تقسيم تاريخ الفن الكنعاني إلى عصرين :

العصر الأول : يبدأ من البدء إلى أول الألف الأول ق.م، وهذه الفترة كانت فترة محاكاة واحتضان لفنون مصر وإيجه والبلاد الأخرى.

العصر الثاني : ويشمل الألف الأول قبل الميلاد إلى آخر العصر اليوناني الروماني. وهو عصر التوليف بين ما ينقله ويتمثله الفنان الكنعاني، متجنباً آفة التنافر بين أجزاء عناصر الحضارات المختلفة بأسلوب وطابع ذاتي خاص؛ أي أن

الفنان الكنعاني يحمل في داخله عناصر الحضارات المجاورة مصهورة وممزوجة بأسلوب ذاتي خاص، متأثراً بهذه التيارات الحضارية المتنافسة؛ وهذا ما أعطى الفن الكنعاني شخصية متميزة ذات خصوصية. وقد أدى هذا التمازج دوراً رئيسياً في صوغ الحضارة الفلسطينية؛ حيث إن الكنعانيين هم السكان الأصليين لفلسطين.

وأهم ما يميز فنون الكنعانيين هو علاقة التنافس بين الممالك الكنعانية المتحالفة حيناً والمتخاصمة حيناً آخر؛ مما أثر في رموز الفن لديهم؛ سواء في الناحية العمرانية أم النواحي الفنية الأخرى؛ فاشتهروا بفنون: التعدين، والخزف، والنسيج، والنحت، ومفاتيح المنازل الضخمة، وفن الموسيقى الذي استخدموه في طقوس عباداتهم.

١- فن النحت :

تميز فن نحت التماثيل بظهور طابعين مميزين: طابع عند فناني الجناح الشرقي ويمتاز بتجسيد الأفكار القديمة بأسلوب قديم؛ وطابع آخر عند فناني الجناح الغربي في مدينة ماري، يجسد الأفكار القديمة بأسلوب جديد يخرج عن المألوف؛ مع وجود طابع ثالث تجلى فيه فن نحت التماثيل، وهو تقليد الأسلوب المصري، إلا أن فن النحت قد أصابه الفتور فيما بعد.

امتاز فن النحت الكنعاني بقلة التماثيل ذات الحجم الكبير وكل ما وجد كان من الحجم الصغير. وقد امتازت التماثيل بالمبالغة والدقة المتناهية في التفاصيل والرمزية العالية، وقد تنوعت التماثيل الكنعانية على حسب تنوع الخامة المصنوع منها فكان منها التماثيل الطينية والتي ازدهرت في العصور الأولى للحضارة الكنعانية، حيث عثر على تماثيل بشرية من الرمل والطين في مدينة أريحا

مدعمة بتصليبات من البوص لبناء هيكل التماثيل ذات النسب القريبة من الإنسان العادي وكذلك استخدموا الجماجم البشرية كرؤوس لتماثيل بعد تغطيتها بالطين.

وكان الفنان النحات اتبع في تشكيله التماثيل الطينية الأسلوب الفطري والتلقائي مع التركيز على الحركة، معتقداً أن الدافع وراء اظهار الحركة في جسم التمثال يرجع إلى دوافع دينية لتستخدم ضمن طقوس العبادة في المعابد الكنعانية أكثر من كونها حركة رياضية عادية .كما تميزت التماثيل الحجرية الكنعانية بتميز وضع اليدين وكبر حجم الرأس بالنسبة للجسم، مع تطعيم العينين بنوع آخر من الأحجار لتجعل العينين بارزتين، حيث اختلفوا عن الحضارات الأخرى في تطعيم أعين التماثيل، مستخدمين الحجر الأبيض لتطعيم عين التمثال ليشكل بياض العين، ثم يطعمه بحجر آخر لشكل حدقة العين .

كما ظهرت تماثيل ذات أسلوب رمزي سريالي كتمثل لرأس الحصان ينتهي بقدم واحد، حيث هدف الفنان إلى استخدام رأس الحصان كجزء يدل على الكل أي على جميع المعاني التي يتضمنها رمز الحصان. ويمكن تمييز طابعين في فن نحت التماثيل وهما: طابع نجده عند فناني الجناح الشرقي، ويمتاز بتجسيد الأفكار القديمة بأسلوب قديم كما في تمثال ربات المياة، وطابع آخر نجده عند فناني الجناح الغربي في مدينة ماري يجسد الأفكار القديمة بأسلوب جديد يخرج عن المألوف كما في تمثال صانع الملك "يارليم ليم" في الالاخ.

خير ما يميز هذا الفن تمثال الرب شمس المنحوت في الحجر الكلسي ذات ارتفاع والذي عثر عليه في مدينة ماري على يد الضابط الفرنسي "البوكمال" وأهم ما يميز هذا التمثال أن فكرته لا تختلف عن فنون العصر السابق إلا في تمثيل الرب شمس فوق الجبل وربطهما معا كقطعة واحدة، حيث إن نصف الرب

العلوي كان يظهر عارياً، أما النصف السفلي فكان على شكل مخروطي محبوك كالدرع ليرمز إلى الجبل، حيث كان الرب شمس يشد على خصره نطاقاً عريضاً، يشبك يديه ورأسه مفقودة ولحيته مضفورة كلحية الملك بوزور عشتار، ولعل التمثال يؤكد على سمة الرمزية حيث أراد الفنان أن يظهر الإله وكأنه يرى الجميع فهو أعلى من الجبل ويمثل قمته. كذلك تمثال وجد في مدينة ماري يمثل ربة الينبوع أو الماء وهو من الحجر الأبيض ذات ارتفاع (١.٥٠م) حيث كان يمثل الربة واقفة تربط غدائر شعرها الثقيل بعصاب

٢- فن النحت البارز والغائر :

كان الجناح الشرقي متمسكاً بتقاليد النحت القديمة؛ أما الجناح الغربي فكان فن النحت فيه متميزاً بطابعه المحلي، وتختفي فيه التأثيرات القديمة.

٣- فن نحت الختم الأسطواني :

يعد تصوير الربة "عشتار" أقوى ما يمثل الختم الكنعاني في جناحي الهلال الخصيب. وقد امتاز أسلوب النقش على الأختام الأسطوانية، باختصار الفنان لعناصر موضوعاته، لصالح المتممات التي ليست من صميم الموضوع. وأهم الموضوعات التي نقشها الفنان الكنعاني على أختامه الاسطوانية: التوجه إلى الرب، وهو قديم عرضه الفنان الكنعاني بأسلوب محلي؛ والعناصر الزخرفيه البابلية والمصرية؛ إضافة إلى رسم أشكال قوية ظلية بارزة، ذات موضوعات متنوعة، كمصارعة الحيوانات. كما امتاز فن الأختام الأسطوانية في العصور اللاحقة بظهور فئة امتازت بكونها ذات أشكال مفتولة قوية، وفي نقوشها تأثيرات غربية عديدة، معظمها جاء على شاكلة الأشكال المصرية، كنقش الرجال والتيجان المخروطية.

٤- الأعمال المعدنية :

تميزت الأعمال المعدنية عند الكنعانيين في معظمها بالدقة والإتقان في الصنعة، والبساطة والوضوح والتجديد. وقد اتصفت هذه الصنعة أحياناً بالتقاليد الموروثة، وبالتجديد وتداول العناصر الأجنبية.

وتعد التماثيل البرونزية والفضية أجمل ما وجد من هذه الصنعة، وبشكل خاص التي وجدت في ساحات مدينة بيلبوس وفي معبديها (معبد الرب "بعل"، والرب "رشف")؛ حيث وجدت مجموعات تماثيل ذكرية مصنوعة من البرونز المغشي بالذهب، أو المصنوعة من الفضة والرصاص.

وهذا ما يؤكد أن الحضارة الكنعانية بشقيها: (الأدبي والفني) كانت من أسبق الحضارات في الوجود .

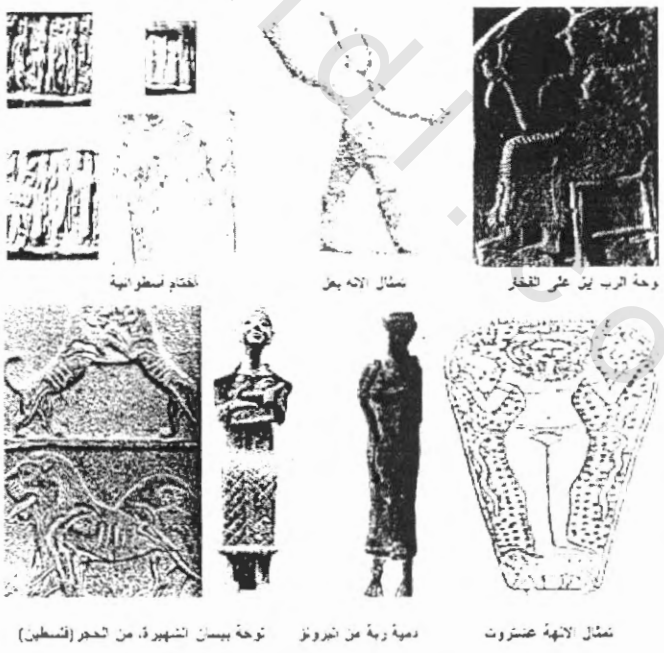

نماذج فنية تعكس الوجه الحضاري للإنسان الكنعاني القديم

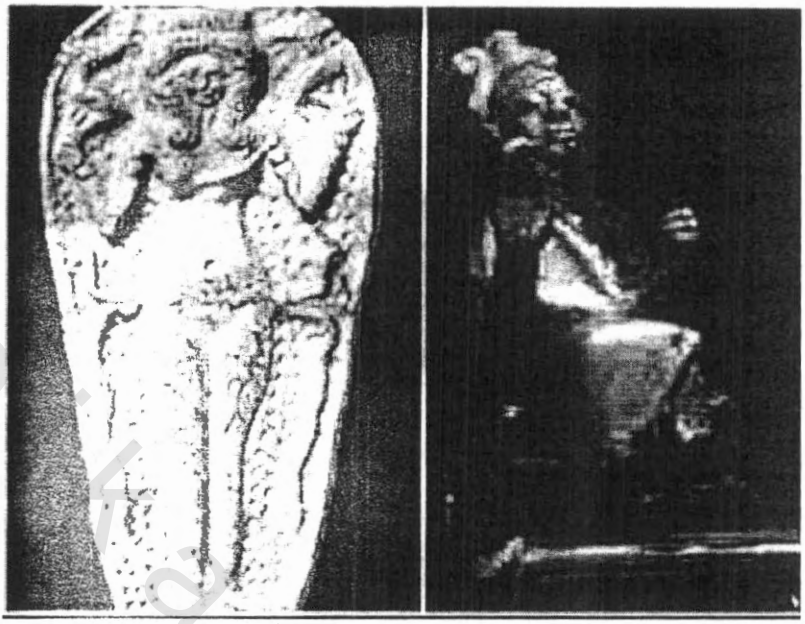

آلهة أوغاريت في الحضارة الكنعانية

بعل رافعاً ذراعه، القرن ١٤ ق.م.–القرن ١٢ ق.م
عثر عليها في رأس شمرا اوغاريت القديمة ، اللوفر

٢- فن العمارة :

لم تكن العمارة الكنعانية بنفس مستوى المعمار في الحضارات المجاورة كالحضارة المصرية القديمة أو الحضارة في بلاد ما بين النهرين، إلا أنه من خلال ما وجد في مدينة مجدو أوغاريت من رسائل، يدل على أن الملوك في بلاد كنعان كانوا يتنافسون فيما بينهم على تجميل قصورهم وتبادل الزيارات لرؤية الأجمل من هذه القصور وأكثرها ذوقاً وتحفاً فنية. كما ذكر المؤرخ "موسكاني" أن فلسطين هي الأسبق من بقاع العالم في معرفة العمارة، حيث تعد مدينة أريحا أقدم مدينة عرفها التاريخ. ونتيجة الجو المضطرب في البلاد الكنعانية وتقاتل الحكام فيما بينهم؛ اشتهرت العمارة الكنعانية في بناء الحصون والقلاع لحماية ممالكهم من أطماع الحكام الآخرين، ومن الغزاة البدو، وبذلك اهتمت العمارة الكنعانية بتقوية البناء وتحصينه على حساب الاهتمام بالناحية الجمالية والفنية للبناء.

كما ذكر "موسكاني" أن حفريات أوغاريت والآلاخ كشفت عن بعض القصور الملكية، فهي تظهر أن الطراز المعماري في العمارة المدنية كان يعرف الفروق الطبقية، فقد اختلفت مباني الملوك والأغنياء عن الطبقة الفقيرة والعامة من أفراد الشعب الكنعاني، حيث زخرفت مباني الملوك والأغنياء بالزخارف والنقوش الملونة، وقد وصف "موسكاني" المباني بأنها تتكون بشكل عام من فناء وحجرتين تأخذ أشكالاً دائرية أو مربعة تحظى ببلاط أرضي أرجواني اللون وتُزين هذه المباني من الداخل ببعض أحواض المياة، والتي لا تزال موجودة في الأبنية في بلاد الشام وخاصة في سوريا.

كما تميزت العمارة الدينية الكنعانية بإقامة المعابد في العراء، وتحيطها الأسوار وتضم مذبحاً ومجموعة من الأحجار المقدسة، كما وجد نوع آخر من المعابد مسقوف قد يكون مأخوذ عن المعابد المصرية أو بلاد ما بين النهرين.

كما أن التوراة أعطت صورة صادقة عن العمارة الكنعانية، حيث وصفتها عند دخول العبرانيين لبلاد كنعان بأنها ذات حضارة عريقة وتمتاز بالمباني العالية والزخارف المنشورة على جدران القصور والأسوار مع استخدامهم للألوان الأرجوانية بشكل واسع في طلاء نقوشهم المعمارية.

obeikandl.com